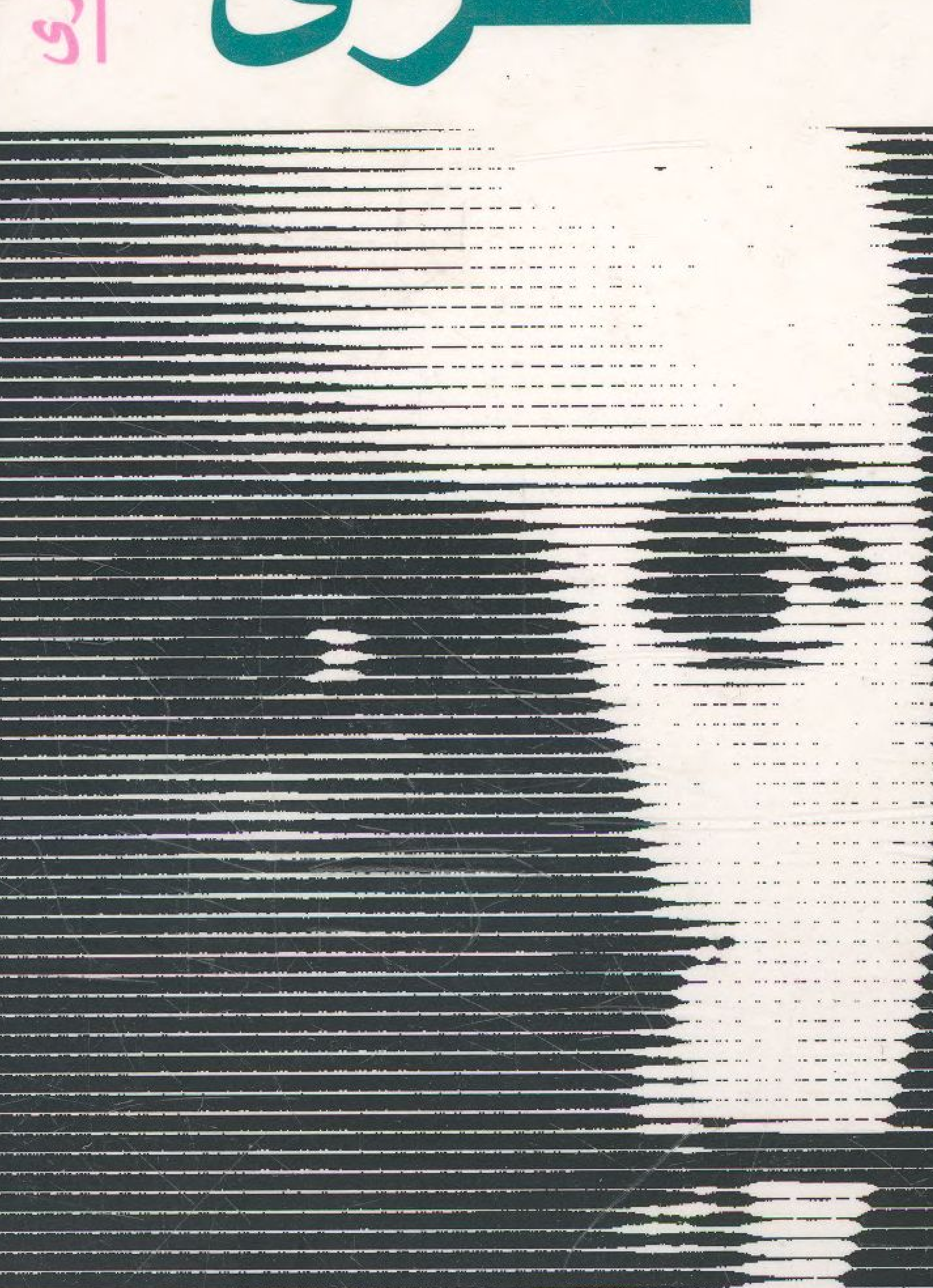
ترجمات

خورخي لويس
بورخيس

التاريخ الكونى للخزى
وقصص أخرى

ترجمة: فايز أبا



ميريت

التاريخ الكوني للخزي

بورخيس

التاريخ الكونى للخزى

خورخى لويس بورخيس

ترجمة: فايز أبا

الطبعة الأولى، 2003

6 (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: 5751500 (202)

merit56 @ hotmail. com

المدير العام: **محمد هاشم**

الغلاف : **أحمد اللباد**

رقم الإيداع: **2003/3043**

الترقيم الدولى: **977-351-688-3**

خورخى لويس بورخيس
ترجمة: فايز أبا

التاريخ الكوني للخزي

ميريت للنشر والمعلومات
القاهرة 2003

إيستمان الناسك
خدين المخازي

عتاة أمريكا الواحدة:

سواء رسمت صورتيهما على خلفية حائط مطلي باللون الأزرق أو على خلفية زرقة السماء ذاتها فإن العتولين المغمدين في لباس أسود رزين يرقصان رقصة وقار.... رقصة التانجو ذات المدى المشرعة بالتكافؤ حتى تندلق فجأة نقطة حمراء من وراء أذن لأن سكينا أغمدت في رجل يضع موته الأفقي نهاية لرقصة بلا موسيقى فيما يسوي الآخر قبعته ويكرّس سنوات عمره الأخيرة – حين يكفّ عن المبارزات – لرواية قصة منازلة نظيفة ...

تلك حتى آخر وأدق التفاصيل حكاية عوالم الأرجنتين السّفلية، أمّا حكايات أشقياء نيويورك وعياريّها فتجري على نحو أسرع بكثير وإن كانت أقلّ جلالا وأدنى شرفا.

عتاولة الآخر:

إن حكايات عصابات نيويورك التي رواها هربرت آسبري في مجلد زاه من أربعمائة صفحة من القطع الكبير فيها كلّ الوحشية والغموض المحيّر اللائقين بأكوان البرابرة وضخامتهم وسخافاتهم ... تجري وقائع القصة الكارثية في أقبية أحد مصانع الخمور التي غدت مساكن جماعية لفقراء الزنوج في جزء رثّ من نيويورك تنتشر فيه المباني ذات الطوابق الثلاثة ويعجّ بالأشرار أمثال سوامب آنجلز الذين ينبثقون بأعداد كبيرة من مجار تتعرج كمتاهات لينخرطوا في غزوات نهب وسلب وعصابات من قاطعي

الرقاب أمثال فتية دي بريك الذين يوظفون قتلة مبكري النضج أعمارهم بين العاشرة والحادية عشرة ... عمالقة متوحدون أمثال "بلق أقليز".

...عصابات من العتاولة الأشداء كعصابة ديد رابيت الذين كانو يخوضون المعارك تحت راية فأل سعدهم المخوزق على رمح. وكان رجالها أناس أمثال داندي جوني دولان الشهير بناصيته اللامعة والعصا المتوّجة برؤس قرود التي كان يحملها والمنتقيات النحاسية الرقيقة التي كان يرتديها في إبهامه ليسمل بها أعين أعدائه.

....رجال أمثال كيت بيرنز الذي اشتهر بقضم رؤوس الفيران وهي حيّة.

رجال أمثال داني لايونيز الصبي الأعمى المزدوج الرأس الأعمى الذي كان يعمل قوادا لثلاث ساقطات كن يجبن الشوارع من أجله باعتزاز.

كانت ثمة صفوف من المنازل الحمراء مثل الذي كانت الأخوات السبع من نيو انجلاند يدرنه واللائي كن يهبن كل أرباحهن ليلة عيد الميلاد للأفعال الخيرية.

كانت ثمة معارك فئران ومعارك كلاب.. وبيوت قمار صينية، نساء كالمرأة المترملة أبدا نورا الحمراء التي كانت مدعاة احترام لكل من حولها ومادة عشق لكل قائد للقوفرز – النقاشين – المشهورين.

أو ليزي الحمامة التي ارتدت ملابس الحداد حين قتل داني لايونز فجزّت عنقها على فعلتها تلك من قبل ماجي اللطيفة والتي

كانت قد استثنت علاقتها بالأعمى الراحل لسنوات.

مظاهرات مثل تلك التي جرت خلال الأسبوع الفظيع الوحشية في سنة 1863 حين أحرقت مائة بناية وسويّت بالأرض تماما وكانت المدينة كلها محظوظة تماما بنجاتها من اللهب...

ومن الشجارات التي يعتبر المتورّط فيها فقيدا كغريق حيث يسحل الرجل حتى الموت.

من اللصوص....

ممن يسمّون الجياد مثل زنجي يوسكي.

أما أشهر بطل في قصص عوالم مدينة نيويورك السّفلى فهو ادوارد ديلاني الذي اشتهر باسم ويليام ديلاني.

الذي عـــرف بجوزف مـــوريس
الذي اشتهر باســم الناسك ايستمان.
قائد عصابة من ألف ومائتي مجرم.

البطل:

إن هذه الانتقادات المراوغة (والتي تبلغ صعوبتها صعوبة لعبة أقنعة لا يستطيع معها المرء أن يعرف هوية أي أحد) لم تنجح في معرفة اسم الرجل الحقيقي، هذا إن كنا نسمح لأنفسنا بالاعتقاد أنّ ثمّة شيئاً مثل اسم الانسان الحقيقي.. والواقع أن الاسم المدون في قسم السجلات في فرع "ويليامز بيرغ" في "بروكلين" هو إدوارد أوسترمان.. فيما بعد حُوّل لصيغة أمريكية (من طابعه الألماني السابق [Edward Ostermann] هي إيستمان)

وياللغرابة! لقد كان هذا الشخص / المجرم الخطير / مدمن الشجارات العاصف يهوديا!

لقد كان ابناً لرجل كان يمتلك مطعما يبيع المأكولات الكوشر (طعام اليهود الحلال فقط) حيث يتردد رجال بلحىً عظيمة (دلالة على امتثالهم التوراتي ومكانتهم كأحبار) ليأكلوا لحماً راعفاً نظِّف ثلاث مرات وجُزَّت رقاب البقرات وفق التعاليم الصحيحة..

وبمعونة والده، افتتح (ايستمان) في سنة 1892 محلاً لبيع الحيوانات الأليفة متخصصا في الطيور.. كانت عاطفته حيالها أصيلة عميقة.. كان يحب أن يرقُبَها.. يدرس ويتأمل قراراتها الصغيرة.. براءتها التي لا تُقهر.. هذه العواطف بقيت تجيش في صدره حتى النهاية.

فيما بعد وفي أيام العَظَمة والأُبّهة وبعدما صار يحتقر السيجار الذي يدخنه زعماء عصابة "قاعة تامّي" بوجوههم المنمّشة، وصار يتردد على أفخم المباغي في المدينة (نيويورك) في سيارة كانت بين الأوليات التي شوهدت في المدينة (لا تعدو الآن موديلاً تجاوزته حتى أقدم جندولات فينيسيا الشهيرة).

وافتتح مؤسسة ثانية – وهذه في الظاهر (على رؤوس الأشهاد) كانت تؤوي مئات من القطط التي تربّت في نقاء وطهارة وأكثر من أربعمائة حمامة وجميعها ليست معروضة للبيع بأي ثمن كان يُحبّ كل واحدٍ من هذه الكائنات.

وكان يُشاهد في الحيِّ الذي يقطنه حين يعنُّ له أن يتمشى في الشوارع المُحيطة وفوق ذراعه قطٌّ يخرخر بسعادة فيما تسير وراءه أخريات يقتفين أثره طامحات في انتباهة منه وفي مراقبته

الطويلة لهنّ طوال الليل.

كان رجلاً له جلال الخالدين وإن كان مُحطّماً

رقبته قصيرة كرقبة ثور و صدر لا مجال لمهاجمته..

ذِراعانِ طويلتان كأذرِع الملاكمين.. أنفٌ مجدوع. وكان وجهه الذي سَطَرتْه الندوب أقلّ مهابة من جسده كانت ساقاه معقوفتين كساقيْ بحّار أو سائس خيل.

كان يخرج أحيانا بلا قميص أو بلا ياقة لكنه أبداً لم يُشاهد بدون القبّعة المدبّبة تعلو رأسه..

مازالت ذكراه ماثلة..

فمن ناحية فيزيقية - بنيانه الجسدي - ما تزال الصور المتحركة (السينما) تتخذه أنموذجاً لتقديم شخصية الرجل المسلّح التقليدية.

وليس على نمط آل كابوني المترهل الأنثوي الملامح.

وقد شاع بين الناس أن هوليود قد قدمتْ لويز فالهايم في أفلامها لأنّ تقاطيعه كانت تستحضر في الأذهان الناسك المقيت إيستمان.

كان إيستمان يغادر منزله ليتفقد إمبراطوريته. التي قوامها العصابات وعلى كتفه حمامة ريشها ازرق تنتصب هناك بجلال وكأنها مالك الحزين مُنتصباً على سنام ثور.

في سنة 1894 كان في مدينة نيويورك العديد من صالات الرقص. إيستمان عمل في إحداها فتوة.. تزعم الخرافة أن مدير المحل رفض حتى أن يتحدث معه بشأن العمل، ولذا أبرز مؤهلاته بقهر الغوريلتين اللتين كانتا تحولان بينه وبين الوظيفة...

بقي محتفظاً بالعمل مرهوب الجانب وحيداً حتى سنة 1894.
وكلما قهر زبوناً أحدث في هراوته علامة مائزة. وذات ليلة اجتذبته صلعةٌ جرداء تميل في قدح من البيرة فهوى عليها بضربة قاسية فتحت جمجمة الرجل "لقد أجهزتُ على تسع وخمسين رقبة وأردتُ أن يكون العدد ستين بالتمام والكمال".
هذا ما قاله إيستمان شارحاً فيما بعد.

* * *

منذ سنة 1899 لم يعد إيستمان شهيراً فحسب، بل صار رئيساً لدائرة انتخابية في المدينة، وجمع أموالاً طائلة من المكوس التي فرضها على البيوت الحمراء في دائرته ومن ألعاب stuss ، والمحترفات والنشالين وسارقي الأرغفة وقطاع الطرق في إقطاعيته الكريهة
وكان الحزب يتعاقد معه حين تدعو الحاجة لعمل وضيع.. كان له أيضا زبائن خصوصيون يأتونه لطلب المهام وهذه قائمة الأسعار التي يتقاضاها لإنجاز مهمة

صلْم الأذن	15 دولاراً
كسر الساق	19 دولاراً
طلقة في الساق	25 دولاراً
الطّعن	25 دولاراً
إنجاز المهمة (القتل)	100 دولار فما فوق

ولكي يحافظ على لياقته كان إيستمان أحيانا يؤدي المهمّة

بنفسه.

وقد أفضتْ به نزاعات حدودية (من النوع الذي حاول القانون الدولي أنْ يستبقها باحترازات وقائية تمنع حدوثها) إلى مواجهة بول كيلي (زعيم عصابة أخرى شهيرة) وكان الرصاص وتشابك الدوريات قد رسم الحدود بينهما..

وفي جوف ليلة عبر إيستمان الخط الحدودي الفاصل فتصدّى له خمسة من رجال كيلي وقد أعانته سكّينه وذراعاه الطويلتان على صَرْع ثلاثة منهم، لكن الاثنين الأخيرين سدّدا طلقتين في بطنه وتركوه ممدداً وحسبوه ميتاً.

دسّ إبهامه ورؤوس أصابعه في جحيم جروحه ومضى مترنحاً إلى المستشفى، ولعدة أسابيع ظلّت تتعارك وتتبارى على إيستمان الحياة والحمّى اللاهبة والموت، لكن شفتيه أبداً لم تتلفظا بأسماء الأشخاص الذين اعتدوا عليه.

حين آن موعد خروجه من المستشفى كانت الحرب قد بلغت ذروة اشتعالها، وتوالت مناسبات تبادل إطلاق النيران واستمرت لمدة عامين إلى أن حلّ التاسع عشر من أغسطس سنة 1903.

معركة شارع ريفنجتون

مائة بطل أو يزيدون، وليس فيهم أي شبيه لأكواز الجَرْعة الواحدة التي لابد أنها الآن تنقرض في كتب الأكواز.

مائة بطل تنبعث منهم جميعاً نتانة روائح تدخين السيجار ممتزجة بأنفاسهم الكحولية.

مائة بطل تتخايل على رؤوسهم قبعات القش ذات الشرائط

المتدلية والزاهية الألوان.

مائة بطل يُعانون - بدرجات تنقص أو تزيد - أمراضاً مخجلة: تسوّس الأسنان، صعوبات تنفس ومشاكل في كُلاهم.

مائة بطل تتغاير وتتفاوت أهميتهم من عَدَمها إمّا بروعة طِروادة وإمّا بغبار معركة جُنين*.

هؤلاء هم الذين قاتلوا ذلك المفعول الداكن للسلاح في ظلال قطار يصعد.

كان سبب ذلك غزوة قام بها أحد أتباع كيلي على وكر قمار تحت حماية إيستمان. قتل أحد أنصار الناسك إيستمان وتطور تبادل النيران إلى معركة بمسدسات لا نهائية العدد. ومن وراء الأعمدة الشاهقة في إل قام رجال صموتون حليقو اللحى بتبادل العدوان.

وفي التوّ صاروا وسط دائرة لهيب مُرعبة يحيط بها مُرتزقة مُستأجرون ومعهم تعزيزات يحملونها بنفاد صبر فيما تقبض أيديهم سلاح مدفعية كولت .

---

* جنين: معركة شهيرة من معارك الاستقلال في بيرو في 6 أغسطس 1824 قاتلت فيها كتائب من سلاح الفرسان الوطنيين بقيادة الزعيم الشهير سيمون بوليفار ضد القوات الملكية بقيادة خوزيه دي سانتراك. كانت القوات الوطنية على وشك الاندحار حتى هوجمت مؤخرة القوات الملكية من قبل جماعات من البيروفيين بقيادة ايزيدورو سواريز- وهو واحد من أسلاف بورخيس استخدمه الكاتب في عدد كبير من قصصه في ظروف مختلفة.

كيف كان شعور القادة في المعركة؟

أولا: أحسب أن الاعتقاد الوحشي بأن الضوضاء التي تصم الآذان الصادرة عن مائة مسدس كانت ستؤدي إلى القضاء عليهم على الفور.

ثانيا: أن اليقينية التي لا تقلُّ فداحة خطئها عن سابقها ستقودهم للاعتقاد بأن من لم ينل منه التراشق الأول صار منيعاً لا يمكن اختراقه.. وبرغم التخرّصات فقد قاتلوا بعنف من خلف حواجز الشرفات المعدنية وتحت أستار الليل.

مرتان حاولت الشرطة من قبل التدخل وفي المرتين رفض الطرفان السماح لهم، ومع أول خيوط النهار كانت المعركة تنتهي تماماً كما لو كانت مجرد منظر أو شيئا بذيئا باليا وتحت الأقواس الشاهقة التي رفع عمدها المهندسون بقي سبعة جرحى إصاباتهم خطيرة.. أربعة قتلى وحمامة نافقة ملقاة.. ودوّت في الجو قعقعة السلاح.. ضجيج التراشق ولعلعة النيران.

* * *

وكان السياسي الذي يعمل إيستمان لحسابه - عضو الحكومة الحي - قد أنكر مراراً في تصريحات علنية للجماهير وجود عصابات كهذه وتولّى إيضاح كونها أندية اجتماعية لا أكثر. ولكن معركة شارع ريفنجتون غير Indies ملأتهم رعباً، فدعوا إيستمان وكيلي وأوحوا لهما إحساساً بالحاجة الماسّة للهدنة.

كيلي - الذي كان يعرف أن السياسيين أجْدى نفعاً من كل

الأسلحة التي صُنعت على امتداد التاريخ عندما يتعلق الأمر بتثبيط رجال الشرطة عن تأدية مهامهم - أبصر ضوء هذه الحقيقة حالاً.. أما إيستمان المغرور بجسده الهائل الغبي فكان يبحث عن غُنم من المزيد من معارك الحقد والرصاص. في البداية رفض الهدنة تماماً لكن الساسة هددوه بالسجن. وفي النهاية جيء بالرجلين وبتاريخهما الإجرامي ليخوضا نزالاً في الجزء العتيق من المدينة.

كان مع كل منهما سيجار يعضّ عليه بنواجذه فيما اليد اليمنى تُلامس المسدس، وقربهما تطوف جحافل الحراس الشخصيين يرقبون ما يجري بدقة.. توصلا إلى قرار من النوع الأمريكاني جداً: أن يحسما الصراع بمباراة ملاكمة.. كان كيلي ملاكما ماهراً. جرت المباراة في حظيرة متهالكة، وكانت وقائعها أغرب من الخيال، وحضرها جمهور نظّارة عددهم مائة وأربعين عتاة يعتمرون قبعات سباق مائلة، ونساء بتسريحة تلك الأيام التي يُكوّم بها الشعر عالياً. دامت المعركة ساعتين وانتهت بالإعياء التام.

بعد أسبوع واحد عاد أزيز الرصاص مُدوياً وألقي القبض على إيستمان للمرة الألف.. أراح القبض على إيستمان رجال الشرطة وأحسوا بابتهاج عظيم وتنبأ له القاضي- محقا- بعشر سنوات سجن.

إيستمان ضد ألمانيا

حين غادر الناسك إيستمان الذي ما يزال في حيرته سجنه في سينج سينج، كان العتاولة - عددهم ألف ومائتان - قد تفرقوا.. لم يتمكن من تجميعهم ثانيةً فاكتفى بالعمل لحسابه بمفرده..

في الثامن من سبتمبر سنة 1917 اعتقل بتهمة التشاجر وأدين بخلخلة الأمن العام.

في اليوم التاسع من الشهر نفسه أحسّ بالحاجة إلى نوع آخر من القتال فانخرط في صفوف الجيش..

ونحن نعلم بضعة تفاصيل عن فترة خدمته.. نعرف أنه كان يعارض بعنف فكرة الأسْر وبعقب بندقيته كان يضع حدا للمارسة الكريهة تلك

نعرف - أيضا - أنه هرب من المستشفى ذات مرة واتخذ طريقه عائداً إلى الخنادق، ونعرف أنه ماز نفسه في المعارك التي دارت قرب "مونت فوكن".

نعرف أنه سُمع فيما بعد أنه وفقاً لرأيه كانت الكثير من صالات الرقص في باوري أشد شراسة مما يُدعى بـ "حربهم العظيمة"..

النهاية الغامضة المنطقية

في الخامس والعشرين من ديسمبر سنة 1920 عُثر على جُثمان الناسك إيستمان في أحد الشوارع الخلفية في منطقة وسط البلد في نيويورك. كانت خمس رصاصات قد استقرت فيه..

كانت ثمة قطة من قطط الأزقة تدور حول الجثة بنعيم جهل بالموت .

المخلّص المتوحش

لازاروس موريل

السبب البعيد

أحسّ فراي بارتولومي دي لاس كاساس في سنة 1517 بشفقة عظيمة على الهنود (الحمر) الذين نحلت أجسادهم وتملكهم الإعياء من العمل في الجحيم المهلك في معادن الذهب الأنتيلية فعرض على الإمبراطور تشارلز الخامس أن يُجلب الزنوج إلى جزر الكاريبي لكي تضعف قواهم وتذوب أجسادهم في جحيم معادن الذهب الأنتيلية .

ولذلك النمط المغاير من فصيلة محبي البشر نحن مدينون بأمور لا حصر لها:

موسيقى البلوز (blues) التي رادها و. سي. هاندي، النجاح الذي حققه المحامي/الرسام الأورغواياني بيرو فيجاري، نثريات العبد الهارب الجميلة للأورغواياني أيضا فيسنتي روسي.. المكانة والاحترام الأسطوريين لإبراهام لنكولن، النصف مليون من القتلى في الحرب الانفصالية، مبلغ الثلاثة بلايين دولار التي انفقت في معاشات الجنود المتعاقدين، تمثال الشبيه المتخيّل لأنطونيو فولكورويز..

إضافة الفعل lynch إلى عدد من المعاجم المحترمة.

فيلم هالالويا للطائش كنج فيدور.

جمال بعض الأوانس الشابات الأنيقات.

هجوم تكتة السود والمبقعين (سود الجلود لا البذل) القوي والمفاجئ بالحراب ضد تلك التلة الشهيرة قرب مونتفيديو.

الرجل الأسود الذي قتل مارتن فييرو.

تلك الرومبا المقيتة "بائع الفستق".
نابولونية توسان لوافرتير التي قبض عليها وأودعت السجن.
الصليب والأفعى في هاييتي.
دماء الماعز التي تقطع أعناقها بخناجر البابوبيين
الهابرنيرا.... التي ولد منها التانغو.
ومع ذلك يتبقى شيء: الوجود الشرير والعظيم للمخلّص الشرير لازاروس موريل

المكان

كان المسيسيبي أبو الأمواه وأعظم نهر في العالم المسرح الجدير بأفعال ذلك الحارس الأسود الذي لا قرين له، وقد كان ألفاريز دي بانيندا هو الذي اكتشف هذا النهر العظيم وإن كان قد سبق وأن ألم به قبله هرناندو دي سوتو قاهر ألبيرو الذي انفق شهور سجنه في سجن إنكا أتاهوالبا يعلم سجانه الشطرنج.

حين مات دي سوتو كانت مياه النهر هي قبره.
إن المسيسيبي نهر لاجبَ الصدر.. هو أخٌ غامق ولا نهائي لنهر البارناي، الأورجواي والأمازون والأورونيكو
وهو نهر خلاسيّ المياه وتجري فيه سنويا أربعة آلاف طن من الوحل باتجاه خليج مكسيكو لتتولى إهانته..
وقد خلقت تلك النفايات العتيقة المحترمة دلتا نمت فيها أشجار السروالمستنقعية الضخمة من تهدل حمأة قارة هي في حال تحلل دائم.
وتولت متاهات الجرانيت والأسماك الميتة ونباتات القصب

المستنقعية دفع وتوسيع حدود سلام امبراطوريتهم النتنة...

في أعلى النهر يقطن أناسٌ مصابون باليرقان يتبختر في سحنهم الجوع وتتربص بهم الحمى، أعينهم تلتمع حين يرون حجرا أو معدنا لأنهم لا يعرفون سوى الأخشاب التي يجرفها النهر والمياه المحملة بالطمي.

في أوائل القرن التاسع عشر - الفترة التي تهمنا - كانت حقول القطن المترامية تفلح من مطلع الشمس إلى مغربها من قبل العبيد الزنوج، في مقصورات خشبية وعلى أرضيات متسخة كانوا ينامون، وفيما عدا علاقة الأم بأبنائها كانت وشائج القربى تقليدية غامضة، كانت تطلق عليهم أسماء ولكن لم تكن لهم ألقاب عائلية، كانوا يجهلون القراءة، ومن حناجرهم كانت أصواتهم الحادة العالية تجعلهم يتحدثون إنجليزية بحروف متحركة منهكة.

في أرتال كانوا يعملون وتنحني رقابهم للسعات سوط المراقب، كانوا يحاولون الهرب أحيانا وعندئذ ينطلق رجال ذوو لحى كثّة ويتقافزون على جانبي صهوات جياد جميلة ليصطادوهم بكلاب مطاردة مزمجرة.

وعلى طمي من أمل شبه متوحش وفرق أفريقي مازوا بين كلمات من الأسفار فكانت المسيحية ديانتهم. وبأصوات خفيضة كانوا يترنمون جماعة باهبط ياموسى

وعلى طمي من أمل شبه متوحش وفرق إفريقي مازوا هنالك بين نصوص نورانية فكانت المسيحية ديانتهم.

"اهبط يا موسى"

كانوا يتغنون جماعيا وبصوت خفيض، وكان نهر الميسيسيبي

يؤدي لهم دور نهر الأردن الشحيح القصي.

مالكو هذه الأراضي المنهكة وزمر العبيد الذين فيها من السادة المتبطلين الذين تتهادى على أكتافهم خصلات شعورهم الطويلة. كانوا يسكنون قصورا عريضة الواجهات وتطل على ضفاف النهر ولها رواقات كالأروقة الإغريقية وأعمدة من الصنوبر الناعم!

كانت تكلفة العبيد الجيدين تبلغ ألف دولار لكنهم ما كانوا يدومون طويلا وكان بعضهم شديدي الجحود لدرجة أنهم يمرضون ويموتون ولذلك كان على المرء أن يستنفد أقصى ما يستطيعه من استثمار غير مأمون كهذا، لذلك كان العبيد يعملون من مشرق الشمس إلى مغربها، ولذلك كانت الحقول تستكره على إخراج محصول سنوي من القطن والتبغ والقصب، وفي غضون سنوات استحالت التربة الأنثوية بعد إنهاكها في الأثمار السنوي المتعجل إلى أراض قاحلة زحفت عليها صحار لا شكل لها ولا هيئة.

وفي المزارع المتهالكة في أطراف المدن وفي حقول القصب المتشابكة الكثيفة وفي شقق من الوحل المقيت كان يعيش "الفقراء البيض" على صيد الأسماك.

أحيانا كانوا يمتهنون الصيد أو سرقة الخيول، في بعض الأحايين كانوا يتسولون من الزنوج لقيمات من طعامهم المسروق، مع ذلك بقي لهم مصدر فخار وحيد: دماؤهم غير الممتزجة بالملونين، الدماء البيضاء النقية

لازاروس موريل كان واحدا من هؤلاء.

الرجل:

الصورة الدغرية ـــ صورة فوتوغرافية على طبق فضة - المطبوعة في المجلات الأمريكية ليست في الواقع صوراً لموريل. وذلك الافتقاد إلى شبيه حقيقي لرجل شهير لا يمكن تناسيه مثل موريل يصعب أن يكون مجرد مصادفة. وربما يكون الأسلم أن نفترض أن موريل رفض أن يجلس لمصوري - الأطباق الفضية - أساساً كي لا يترك وراءه أثراً يسهل اقتفاؤه.... واتفق أن ذلك زاد من غموضه وسريته، غير أننا - على أية حال - نعرف أنه لم يكن وسيما على وجه التحديد وأن عينيه الدقيقتين شبه المقفلتين وشفتيه الرقيقتين لم تتضافرا لصالحه. وقد منحته السنوات - بمرور الزمن - تلك الهيبة والعظمة التي يحوزها فيما يبدو الحراس السود والمجرمون الناجحون الذين لم يعاقبوا. لقد كان واحدا من السادة الجنوبيين من المدرسة العتيقة برغم طفولته الفقيرة وحياته المخجلة.. وهو لم يكن جاهلاً بالنصوص المقدسة، وكان يعظ بإيمان استثنائي.

"لقد رأيتُ لازاروس موريل على المنبر ذات مرة، "كتب صاحب بيت قمار في باتان روج.. وسمعت كلماته.... ورأيت الدمع يملأ مآقيه. كنت أعلم أنه يصطنع ذلك.... وأنه سارق زنوج وقاتل في نظر الرب لكن عيني أيضا فاضتا بالدمع

وثمة شهادة أخرى على هذه الانثيالات الربانية جاءت من موريل نفسه..

"فتحتُ الإنجيل بشكل عشوائي ووضعت إصبعي على أول آية بدت لي - كانت عن سانت بول - واندفعت أعظ ساعة وعشرين

دقيقة.. ولم يسئ كرنشو وبقية الأولاد استغلال الوقت لأنهم اقتادوا كل الجياد التي يملكها هؤلاء الناس - الموعوظين - وهربوا بها، وقد بعناها في ولاية أركانسس جميعها عدا مُهر واحد. كان أكثر ما يمكن لعينيك أن ترى حيوية وعزماً.. احتفظت به لنفسي، كان كرنشو قد طمع في أخذه ولكنني أقنعته أنه لم يكن الجواد المناسب له.

الطريقة:

الجياد التي تُسرق من ولاية وتباع في أخرى كانت مجرد انحرافات في مهنته الإجرامية، ولكنها أبرزت الطريقة التي ستضمن له مكاناً في تاريخ كوني للخزي. كانت طريقته فريدة ليس فقط بسبب الملابسات التي شكلتها ولكن أيضا بسبب ما اقتضته من حرمان وانتهاك حقير للثقة وتطور تدريجي كتفاصيل مرعبة من كابوس يتتالى انكشاف أحداثه.

إن "آل كابوني" و "وبقس موران" يشتغلان برأس مال وفير ورشاشات خانعة في مدينة كبيرة.. لكن عملهم سوقي مبتذل وغير مصقول.. إنهم يقاتلون من أجل الاحتكار، وذلك أقصى ما تذهب إليه طموحاتهم.. من جهة الأعداد كان لدى "موريل" مرة أكثر من ألف متضامن أقسم بالولاء، كان منهم مائتان في القيادات (المجلس العمومي) وكان القادة هم الذين يصدرون الأوامر التي يسير عليها البقية، وهؤلاء الهجامة - كما كانوا يُسمّون - تحمّلوا كافة الأخطار، فإن خرجوا عن الخط المرسوم سُلّموا إلى العدالة أو ربطت في أرجلهم صخور وأغرقت أجسادهم في مياه النهر.....

وعادة كان هؤلاء من المولّدين.. وكانت مهمتهم الشريرة هي ما يلي:

في لحيظات يسار (تتكدس فيها الذهب والفضة) بشكل عابر، كانوا يطوفون حقول الجنوب ليحصدوا الاحترام ويختارون رجلا أسود بائسا ويعرضون عليه: حريته، كانوا يقولون له إنه لو هرب من سيده وسمح لهم أن يبيعوه لآخر فسيعطونه حصةً من المال ويساعدونه على الهرب ثانيةً وبعدئذ - كانوا يقولون - يبلغون به أراض حرة.. مالٌ وحريّة. ويوقعونَ له بالدولارات الفضية على حديد أُحذيتهم أنغام الحرية، فما الذي يمكن أن يكون أشد إغراءً؟ يتدبر العبد الشجاعة اللازمة للهروب الأول.

كان النهر نوعا من الطريق السريعة الطبيعية.

وسواء قارب صغير.. مقبض قارب نهري.. بارجة.. طوفا ضخما كسماء به منزل للقبطان على جذع شجرة أو سقفا من أشرعة قُنّب.. أيا منها فالمكان لم يكن مهما.. ما كانَ مهما هو معرفة أنك تتحرك.. وأنك آمن في مياه نهر لا يكلّ . كانوا يبيعونه لمزرعة أخرى... ويهرب ثانية إما إلى حقول القصب أو الأخاديد التي تحفرها مياه الأمطار. وعندئذ يطالعه - المنتفعون المرعبون الرهيبون الذين بدأ يتشكك فيهم - بنفقات غامضة ويخبرونه أنهم اضطروا لبيعه مرة أخيرة.. وحين يهرب في المرة التالية - كانوا يقولون له - إنهم سيمنحونه نسبة من البيعتين و... حريته. ويتركهم الرجل يبيعونه ويعمل لفترة من الزمن ثم يقترف المخاطرة بتحدّي الكلاب والسياط ويحاول أن يهرب معتمدا على نفسه.. فيُجاء به مدميّا غارقا في العرق، يائسا وتعبا.

الحرية النهائية:

نحن لم نمنح بعد الجانب القانوني من الجريمة اعتبارنا، إن الزنجي ما كان ليباع إلاّ بعد أن يُعلن عن هربه وتعرض مكافأة لمن يقبض عليه.. في هذه الأثناء يمكن لأي أحد أن يُمسك بالعبد.. وهكذا فإنه حين يُباع ثانية يكون ذلك مجرد إخلال بالثقة، ولم يكن المالك ليلجأ إلى القانون إذ انه ما كان ليعوِّض خسائره

وقد وُضع كل ذلك في الحسبان ليترك ذهن موريل في سلام وصفاء.... ولكن ليس إلى الأبد. كان الزنجي يستطيع أن يتكلم.. كان قادرا على الكلام – إمّا للامتنان المحض أو التعاسة – وبضع كؤوس من مشروب في مبغى في القاهرة في إلينوي حيث يمضي النغل المولود عبدا ليبدد بضعة من تلك الدولارات الفضية التي تحرق جيوبه وتحدث فيها خرقا (وهي دولارات ما كان ينبغي أن تُعطى له من الأساس إن عدنا إلى أصل البلية).. وعندئذ تخرج القطة من قبعة الساحر..

وكان حزب إلغاء الرق قد ألهب القضية في الشمال في هذه الأثناء... زمرة من المجانين الذين ينكرون حق المرء في ملكيته الخاصة يبشرون بمشاعر السود ويحرضون العبيد على التمرد – العصيان – الثورة.

ولم يكن موريل بصدد أن يترك نفسه عُرضة لأن يُخلط بينه وبين هؤلاء الفوضويين.. فهو لم يكن من اليانكيين.. كان جنوبيا.. أبيض أبا عن جد، وكان يأمل أن يتقاعد يوما من تجارته وأعماله ليصبح سيدا ويتملّك رابطة من أراضي القطن علاوة على التي

يملكها وصفًا من عبيد منقوسي الظهور، وبخبرته هو، ما كان رجلا يقترف مخاطرات لا معنى لها
الهارب كان يتوقع تحرره.. ولذا فإن مولّدي لازاروس موريل ال كانوا يعطون إشارة (قد لا تكون أكثر من غمزة عين) وعندئذ يُحرّر الهارب من النظر والسمع، اللمس.. ضوء النهار.. الخزي.. الزمن.. المنتفعين.. الرحمة.. الهواء.. الكلاب.. الكون.. الأمل.. العرق.. ومن نفسه.
رصاصة.. طعنة خفيضة بمدية.. ضربة على الدماغ.. ويُترك لسلاحف ولأسماك الميسيسيبي كي تتشاطر كتمان السر.

النكبة:

ولأن الأشخاص الذين أداروا العمل كانوا من الموثوق فيهم فقد كان لا بد للعمل أن يزدهر، وفي أوائل سنة 1834 حُرّر حوالي سبعين زنجيا بواسطة موريل، وكان هناك آخرون على استعداد لاقتفاء أثر هذا السباق.. كانت منطقة العمل الآن شاسعة مترامية وكان لابد من قبول أعضاء جدد في العصابة.

بين هؤلاء الذين اقسموا اليمين كان شاب اسمه "فيرجيل ستيوارت" من أركانسس، والذي سرعان ما ميّز نفسه بوحشيته. كان الولد من أقرباء سيد فقد أعدادا كبيرة من العبيد..
وفي أغسطس سنة 1834 حنث بقسمه وندّد بموريل والآخرين واتهمهم بالضلوع فيما حدث، طوقت السلطات منزل موريل في نيوأورلينز، ولكن موريل استطاع إما لنظره الثاقب أو رشوة في المكان الصحيح – أن يهرب..

مرّت ثلاثة أيام، اختفى موريل خلالها في منزل عتيق له باحات تغطيها تعريشات العنب والتماثيل في شارع تولوز. ومن الواضح أنه لم يكن لديه ما يؤكل فقضى الأيام يذرع الغرفات الواسعة المُظلمة حافيا يدخن ال بتفكير عميق.

ومن خلال أحد العبيد في البيت تمكن من بعث رسالتين إلى ناتشز وأخرى إلى النهر الأحمر، في اليوم الرابع دخل ثلاثة رجال المنزل وجلسوا يتحادثون ويقلبون الأمر على وجوهه مع موريل حتى مطلع الفجر.. في اليوم الخامس غادر موريل فراشه، استعار شفرة حلاقة وحلق لحيته بعناية.. بعدئذ ارتدى ملابس وحالما هبط الليل غادر المنزل.. وببطء وهدوء شق طريقه عبر ضواحي المدينة الشمالية.. وحين بلغ الريف المشرع بعيدا في الأراضي الدنيا من نهر الميسيسيبي أصبح قادرا على التنفس بشكل أيسر.

كانت خطته شجاعة مخمور، إذ عرض أن يستغل آخر الرجال الذين ظلّوا مدينين له بالاحترام: الزنوج المضيافين في الأراضي الجنوبية.. هؤلاء الرجال رأوا رفاقهم يهربون ولم يشاهدوهم يعودون. لذا ظنوا أنهم وجدوا الحرية. كانت خطة موريل أن يدعو إلى انتفاضة عامة للزنوج وأسْر أهالي نيوأورلينز وطردهم واحتلال المنطقة، خطّط موريل (عديم الرحمة الذي صار يعاني حِرمانا وأوشكت الخيانة أن تقضي عليه) لردّ بحجم القارة.. ردّا تغدو معه الجريمة درب خلاص وتاريخية.. ومن أجل ذلك توجه إلى ناتشز، حيث أخذت قواه تتناقص.. وأنا أعيد هنا ما رواه هو شخصيا عن تلك الرحلة:

"مشيت أربعة أيام.." قال راوياً "ولكي تسنح لي فرصة الحصول على جواد" في اليوم الخامس توقفت هنيهة قرب نهير لأتزود بالماء وأستريح قليلا.. وفيما كنت جالسا أعلى جذع أنظر إلى السفل في اتجاه الطريق التي جئت منها.. جاء رجل يمتطي حصانا جميل الشكل، في اللحظة ذاتها التي رأيته فيها كنت قد صممت على أخذ فرسه، نهضت ووجهت نحوه فوهة مسدس وأمرته أن يترجل ففعل، واقتدت الحصان من لجامه هابطا نحو النهير وأمرته أن يسير أمامي. مشى بضع مئات من الياردات ووقف. أجبرته على خلع ملابسه بما فيها القميص والسروال وطلبت منه أن يُدير ظهره لي.

قال لي: إن كنت مصمما على قتلي فامنحني وقتا لأصلي قبل أن أموت" قلت له أنه لا وقت لدي لسماع صلاته. استدار وجثا على ركبتيه فسددت إلى مؤخرة رأسه.. مزقت بطنه واستللت أمعاءه وأغرقته في النهر، بعدئذ فتشت جيوبه ووجدت أربعمائة دولار وسبعة وثلاثين سنتا وعددا من الأوراق لم أهدر وقتا في فحصها.. ألقيت بالقبعة والأوراق ودفتر الجيب إلى قاع النهير، كان حذاؤه جديدا تماما وقد واءم رجلي بلطافة.

"امتطيت أجمل صهوة فرس في حياتي واتخذت طريقي إلى ناتشز"

قطع المقاطعة:

موريل يقود ثورة زنوج حلموا بشنقه.. حشود وجيوش من الزنوج الذين حلم موريل بقيادتهم يقومون بشنقه.. ويؤلمني أن

أعترف أن تاريخ الميسيسيبي لم ينتهز تلك الفرص الغنية، بل ولم يصبح النهر - وفقا للعدالة الشعرية أو التجانس الشعري - قبره بعد أن كان مسرح جرائمه.

في الثاني من يناير 1835 مات موريل من احتقان في الرئة في مستشفى في ناتشيز حيث أدخل باسم سايلاس بكلي، رجل آخر في الجناح عرف من يكون. في ذلك اليوم الرابع من يناير حاول العبيد المتناثرون في المزارع أن يثوروا ولكنهم أحبطوا دون خسائر دموية كبيرة....

الدّجال الأبله: تـوم كاسترو

أمنحه ذلك الاسم لأنه الاسم الذي عرف به في سنة 1850 أو حولها في الشوارع.. في بيوت تالكاهانو وسانتياجو دي شيلي وفالبارايزو ويبدو أن العدل فقط يقتضي أن يستعيده ثانية مادام قد عاد إلى هذه الأرض ولو كشبح أو تسلية نهاية الأسبوع (ليلة السبت)..

سجل المواليد في وابنج يسميه آرثر أورتون ويذكر تاريخ ولادته في 7 يونيه 1824 ونعرف أنه ولد لجزار وأنه أمضى طفولته في وضاعة أزقة لندن الرمادية وأنه تحرّق لتلبية نداء البحر.. والقصة ليست نادرة فالهرب إلى البحر كان الطريقة الإنجليزية التقليدية للتمرد على سلطة (الكبار) والطقس البطولي للمبادرة. والجغرافيا تغري باتخاذ هذا المسار مثلما قالت النصوص....

"أولئك الذين يهبطون إلى البحار بالسفن ويتاجرون في أعالي البحار هؤلاء يرون صنيع الرب وعجائب خلقه في الأعماق"
107- 23-24

هرب أورتون من ضاحيته الرثة الزهرية اللون المقيتة ومضى إلى البحر بسفينة، كان يتأمل الصليب الجنوبي بتبرم وإحباط عميق ولذا انتقل إلى سفينة أخرى في فالبارايزو، كان أبله لطيفا... وبرغم أن المنطق بكافة أنواعه كان يقتضي أن يموت جوعا، غير أن غباءه المرح وتقطيبته الدائمة وخضوعه اللانهائي أكسبه رضا عائلة كاسترو والتي اتخذ لقبها منذ ذلك الحين لقبا دائما له هو...

ولم يبق أي أثر يدل على الفترة التي قضاها في أمريكا

اللاتينية وإن كنا نعلم أن امتنانه لم ينقص يوما

في عام 1861 ظهر في أستراليا وكان ما يزال يحمل اسم توم كاسترو.. وقد تعرف في سيدني على رجل اسمه أيبنزير بوجل، وهو خادم زنجي،

بوجل لم يكن وسيما ولكنه يشع سلاما وطمأنينة باهرين، على محياه سيماء الصلابة... التي تكون عادة للرجل الأسود في عمْر معين، فيزيقية بنيان جسماني من جوهر معين... نوعا من الثقة. وكانت لبوجل ميزة أخرى كذلك – برغم أن بعض كتب الانثروبولوجيا تنكر أن جنسه يتمتع بها –: العبقرية.

وسنرى دليلا على ذلك حالا. كان رجلا وديعا هادئ المزاج صوّبت فيه الكالفينية الشهوات الأفريقية العتيقة بعاداتها ومبالغاتها. وبخلاف زيارات إلهه له (والتي سنصفها فيما بعد) كان الأمر المتطرف الوحيد في حياته خوف عميق ومخجل يعتريه في زوايا الشوارع والتقاطعات يجعله يتردد طويلا وينظر إلى كل الجهات: شرقا وغربا، شمالا وجنوبا محاولا أن يستبق بتخمينه الجهة التي ستأتي منها العربة الشريرة والتي هو على يقين أنها ستُنهي حياته.

وقد التقى أورتون صديق أيامه القادمة ذات مساء فيما كان بوجل يقف في ركن هروبي فيما كان يحاول أن يستجمع شجاعته ليواجه ميتته المتخيلة، وبعد أن راقبه أورتون عدة دقائق مدّ له ذراعه وعبر الرجلان الذاهلان شارعا غير مؤذ.

ومن ذلك المساء الذي غدا الآن ماضيا انبثقت حماية جديدة: من الزنجي الفخيم الشكّاك حيال بدين وابنج الغرّ.

في سبتمبر من سنة 1865 قرأ الاثنان خبرا في جريدة محلية

حطم قلبيهما.

موت الحبيب الأغلى:

في سنة 1854 وفي الأيام التي كانت تبهت تدريجيا من شهر أبريل ــ وبينما ــ كان أورتون يلهم كرم الضيافة التشيلية الباذخ والمتدفق بإسراف والذي يتشاطر جمال الترحيب مع أغنية تلك البلاد ــ في ذلك الوقت غرقت في مياه الأطلسي سفينة بخارية كانت تسمى ميرميد، وكانت متوجهة إلى ليفربول من ريو دي جانيرو، وبين الغرقى كان ثمة واحد يدعى روجرز تشارلز تيكبورن.. وهو ضابط في الحربية، رُبي في فرنسا، وهو الابن الأول لعائلة من كبرى العائلات الكاثوليكية الإنجليزية والتي استولدته عنوة!

ومهما بدت استحالة أن يكون موت هذا الشاب المتفرنس (الشاب الذي كان يتحدث إنجليزية بنبرة أرقى الطبقات الباريسية ثقافةً والذي أثار حسدا وغيرة لا مثيل لهما ولا يحركها إلا الذكاء والتهذيب والرقة الفرنسية) حدثا ذا أهمية قصوى في مصير آرثر أورتون الذي لم يره في حياته. (لكن هذا ما حدث).

فقد رفضت الليدي تيكبورن والدة روجرز أن تصدق ما نقلته التقارير عن موته فنشرت إعلانات.... في كل الصحف الكبرى وأحد هذه الإعلانات وقع في يديّ إيبنزير بوجل الجنائزيتين الناعمة فتوصل إلى خطة ذكية.

فضيلة انعدام الشبه:

كان تيكبورن شابا نحيلا ودمثا متحفظا عليه سيماء المنشغلين بذواتهم، ملامحه كانت حادة التقاطيع: شعر أسود سائب، بشرة سمراء يشوبها اصفرار، عينان لامعتان، طريقة في الكلام دقيقة إلى حد الاستفزاز.

أورتون كان أخرق لا سبيل للجم حماقته، ريفيا جلفا ذا معدة شاسعة وملامحه ملأى بغموض لا نهائي، ببشرة جميلة ومبقعة (ملأى بالبثور) وشعر بني متماوج، عينان ناعستان، حديثه معدوم أو لا معنى له..

بوجل قرر أن واجب أورتون أن يسافر على أول سفينة بخارية متجهة لأوروبا ويحقق أمل السيدة تيكبورن في أن ابنها لم يمت بإخبارها أنه هو ذلك الابن.. كانت خطة ذات عبقرية لا عقلانية.. دعني أوضح بمثال بسيط: لو أن محتالا ما أراد أن يقدم نفسه إمبراطورا لألمانيا وملكا لبروسيا في سنة 1914 فإن أول ما كان سيفعله هو اصطناع شارب معقوف إلى الأعلى، ذراع متخشبة، التكشيرة السلطوية، الرداء الرمادي على الكتفين، الصدر الموشى بالكثير من النياشين والخوذة العالية..

بوجل كان أكثر دهاء ومكرا.. كان سيختار أن يجيء بقيصر ذي وجه ناعم دون أي ملمح عسكري، وبلا نسور فخورة على الإطلاق، ذراع يسرى يبدو عليها الوهن تثير صحتها التساؤلات، ونحن لسنا بحاجة للاستعارة التمثيلية، إذ أن بوجل قد قدم تيكبورنيا بدينا ومترهلا بابتسامة الأحمق الحلوة، شعرا بنيا غير

غامق وجهل مطبق بالفرنسية ومستمر، بوجل كان يعرف أن إيجاد شبيه مطابق للمحبوب روجرز تشارلز تيكبورن كان مستحيلا، كان كذلك يعرف أن أي مشابهة يستطيع تحقيقها لن تؤدي إلا إلى إبراز اختلافات معينة لا يمكن تفاديها.. لذلك تخلى نهائيا عن فكرة الشبيه. أحسّ أن زيادة سخف ما يتظاهر به هي التي ستكون دليلا على أن هذا ليس غشا. إذ ما من محتال ستكون له ملامح تكتنفها المعائب بشكل فاضح كهذا يمكن أن تكون مقنعة.
أيضا علينا أن لا نتغافل عن الكيفية القوية جدا لتضافر الزمن وتواطؤه بكل جبروته، تقلبات الحظوظ وأربعة عشر عاما من أسلوب حياة نقيضة. ثمة حجة أخرى ترجح خطة بوجل، فالإعلان المتكرر واللاعقلاني الذي داومت السيدة تيكبورن على نشره أظهر أنها على يقين أن روجرز تشارلز لم يمت، وأنها ستطوع إرادتها للتعرف عليه حين يأتي....

اللقاء:

بعث توم كاسترو الدائم اللطافة رسالة إلى السيدة تيكبورن ولكي يؤكد هويته استحضر البرهان الذي لا يمكن رفضه وهو الشامتين اللتين بقرب ثديه الأيسر، وروى تلك الحكاية التي لا تنسى من فترة طفولته حين هاجمته أسراب من النحل.

كانت الرسالة موجزة وخالية – في مخيلة بوجل وتوم كاسترو– من أي شيء قد يثير الشكوك فيما يتعلق بطريقة تهجئة الكلمات.

في وحدتها الجليلة في فندقها الباريسي الخاص (أوتيل باركتوليه) قرأت السيدة تيكبورن الرسالة وأعادت قراءتها مرات ومرات بعينين مرهقتين ملأى بدموع السعادة، وخلال أيام قليلة استعادت الذكريات التي استحضرها ابنها..

في يناير 1867، زار روجرز تشارلز تيكبورن والدته يتقدمه خادمه المحترم إيبنزير بوجل. كان يوما شتائيا بشمس ساطعة. عينا السيدة تيكبورن اختفتا تحت وابل دموعها، فتح الرجل الأسود النوافذ فلعب الضوء دور القناع وعرفت الأم وفتحت ذراعيها له.

والآن وقد صار أمامها بشحمه ولحمه صارت قادرة على الاستغناء عن الذكريات والرسائل التي بعثها إليها من البرازيل: ذلك الكنز من التأملات الثمينة من ابنها والتي كانت سندها خلال أربعة عشر عاما من الأحزان.. أعادتها إليه والفخار يملؤها، لم تنقص منها رسالة واحدة.

تبسم بوجل الآن بوسعه أن يقوم بأبحاثه عن شبح روجرز تشارلز اللطيف.

آد ماجورم ديي جلوريام:

إن التحقق المبهج الذي يبدو خاضعا لتقاليد التراجيديا الكلاسيكية ينبغي أن يكون تتويجا لهذه الحكاية بعد أن ضمن السعادة (أو على الأقل بدت أكثر من احتمال وارد) لثلاثة من شخوصها: الأم الحقيقية، الابن الشهم المشكوك في بنوته والمتآمر الذي جوزي على تأليهه لحرفته. ولكن القدر - لأن هذا هو الاسم الذي نطلقه على آلاف الأشياء اللانهائية والتي لا تتوقف لأسباب

كثيرة متشابكة – لم يشأ ذلك. فقد ماتت السيدة تيكبورن في سنة 1870 وأقامت العائلة دعوى انتحال شخصية ضد آرثر أورتون واتهموه فيها بتبديد أملاكها.

ولأنهم لم يقاسوا الوحدة ولم يعانوا من ذرف الدموع (وإن لم يكونوا بمنجاة من الجشع) فإنهم لم يصدقوا الابن المفرط البدانة الذي يكاد يكون جاهلا والذي ظهر لهم في أسوأ توقيت من أستراليا..

كان يدعم أورتون في مزاعمه عدد من الدائنين الذين أكدوا أنه سليل تيكبورن لأنهم يريدون تحصيل أموالهم. واستند أورتون كذلك على مصادقته لمحامي العائلة العجوز إدوارد هوبكنز وكذلك رجل يعمل في التحف القديمة اسمه فرانسيس جي. بايجنت. ولكن هذا كله رغم أنه كثير لم يكن كافيا. واعتقد بوجل أنهم كانوا بحاجة لتأييد جماهيري.. لكسب هذه الجولة.

طلب أحسن قبعاته ومظلته السوداء ومضى يتمشى في شوارع لندن الزاهية بحثا عن الإلهام. كان الوقت في بداية المساء.. فظل بوجل يتجول حتى تجلّى القمر العسلي اللون منعكسا على صفحات المياه المستطيلة في النوافير العمومية.. وبعدئذ زاره إلهه..

صفّر بوجل طالبا سيارة أجرة حملته إلى شقة بائع الآثار بايجنت. وبعث بايجنت برسالة مطولة لصحيفة التايمز يشجب فيها دعي تيكبورن المخادع الوقح. وقد وُقع الخطاب باسم الأب جاودرن من جمعية السيد المسيح.. وتتالت خطابات شجب بابوية مماثلة كان تأثيرها فوريا ولا بد أن الإنسان ذي النزعة إلى الحق ما كان سيصعب عليه أن يدرك أن السير روجرز تشارلز

تيكبورن كان ضحية مؤامرة يسوعية مقيتة.

العربة

دامت المحاكمة مائة وتسعين يوما.. وقد أقسم حوالي مائة شاهد أن المتهم هو روجرز تشارلز تيكبورن وبينهم أربعة من رفاق السلاح في كتيبة التنانين السادسة. وقد أصرّ أنصار أورتون أنه لم يكن غشاشا لأنه لو كان كذلك - مثلما أوضحوا - لكان سعى إلى احتذاء نموذج الصورة الصبيانية.. وفوق ذلك فإن السيدة تيكبورن قد تعرفت عليه وقبلته ومن الواضح أن قلوب الأمهات ما كانت لتخطئ في مواقف كهذه.. كان كل شيء يمضي على أحسن ما يمكن عندئذ - تقريبا - إلى أن استدعيت إحدى عشيقات أورتون للشهادة.. ولم تختلج في وجه بوجل أية عضلة أمام هذه المناورة ال من العائلة. طلب أفضل قبعاته، مظلته السوداء ومضى يمشي في شوارع لندن الزاهية طلبا لإلهام ثالث. لكننا أبدا لن نعرف إن كان وجده أم لا! فقبل أن يصل إلى "برمدوز هيل" بقليل صدمته تلك العربة الرهيبة التي ظلت تتبعه خلال كل السنوات الماضية.. كان بوجل قد رآها قادمة نحوه استطاع أن يصرخ لكنه لم يستطع أن ينقذ نفسه، وقد ألقت به العربة بعنف على حجارة الرصيف، حوافر الحصان ال فتحت جمجمته.

المشهد:

كان توم كاسترو شبح تيكبورن ولكن شبحا بائسا يسكنه شيطان بوجل، حين قيل له أن بوجل قد قتل، انهار بمنتهى البساطة.. استمر يكذب ولكن بحماس قليل جدا.. وبقدر كبير من مناقضة ذاته. وكان من السهل التنبؤ بالنهاية.

في السابع والعشرين من فبراير 1874 حكم على آرثر أورتون (المسمى بتوم كاسترو) بأربعة عشر عاما أشغال شاقة..

وفي السجن تحبب إلى الجميع.. كان ذلك عمل حياته..

وقد أكسبه سلوكه المثالي إنقاص سنوات من مدة حكمه، وحين باغته انتهاء تلك الضيافة الأخيرة – السجن – جال في مدن وقرى المملكة المتحدة.. يلقي محاضرات يراوح فيها بين إعلان براءته والاعتراف بذنبه

وقد لازمه تواضعه ورغبته في إبهاج الآخرين وإسعادهم دائما.. في ليال كثيرة كان يبدأ بالدفاع عن نفسه ثم ينتهي إلى الاعتراف بكل شيء وفقا لرغبة الجمهور.

في الثاني من أبريل سنة 1898 مات.

شينج : المرأة القرصان[1]

[1] كان عميد الأدب العربي الراحل د. طه حسين أيقونة عصر النهضة يرى أن المناصب والمراتب لا ينبغي أن تُجنس ولعله يومها لم يُعان سطوة الحركة النسائية التي استعرت في الغرب ولذا كان يقول عن تلميذته سهير القلماوي أنها أستاذ الأدب العربي... الخ.

إن المؤلف الذي يستخدم عبارة المرأة القرصان يجازف باستدعاء أخيلة مربكة لتلك المنقرضة الآن : الأوبريتة الأسبانية بنظرياتها عن الخادمات الصغيرات المكشوفات وهن يلعبن أدوار قراصنة راقصين فوق بحار من أوراق اللعب المميّزة.

ومع ذلك فقد كانت هناك حالات ظهرت فيها نسوة قراصنة... نسوة بارعات في القرصنة..في حكم وإدارة أطقم من الرجال البرابرة...وملاحقة السفن الإمبراطورية ونهبها في أعالي البحار.

ماري ريد كانت واحدة من هؤلاء، وقد نقل عنها أنها كانت تقول إن القرصنة ليست مهنة مشاعا لكائن من كان وان من يريد أن يتخذها مهنة كريمة فلابد أن يكون مثلها رجلا مقداما لا يهاب الأخطار.

في بداياتها في مهنة القرصنة، قبل أن تصبح قبطاناً، تعرَّض شابٌ أعجبت به لمضايقة من بلطجي السفينة فافتعلت معه شجاراً وقاتلته بيديها على طريقة أهالي الكاريبي، في يدها اليسرى البندقية التي تُلقم من مؤخرتها الضيقة الطويلة التي لا يُعتمد عليها، وفي اليمنى السيف الضالع الموثوق به والذي برّأ ساحته بطريقة تثير الإعجاب..

في سنة 1720 قاطعت المشانق الأسبانية تاريخ ماري ريد المهني وأنهته على حبالها في سانيتا جودي لا فيجا في جزيرة جامايكا..

وهناك أنثى أخرى احترفت القرصنة هي: آن بونّي المرأة الأيرلندية الرائعة، ذات الصدر العالي والشعر الناري، والتي خاطرت بحياتها مراراً وهي تحاول اقتحام السفن.. وقد وقفت مع

ماري ريد على ظهر السفن، ووقفت معها أيضاً على المشنقة.. ولاقى عشيقها القبطان جون راخام الأنشوطة - التي أنهت حياته ـ في نفس الحلقة العقابية.

آن ـ التي ازدرت ما جرى له - رددت بتعديل طفيف ملامة أكسيا لبوديل (عائشة لأبي عبد الله)[2] "لو حاربت كرجل لما شُنقت ككلب".

امرأة قرصان أخرى، ولكن أكثر جسارة وأطول عمراً، كانت تجوب بحار آسيا القصية من البحر الأصفر الأنهار التي على حدود أنّام..

عن الأرملة الجسور "**شينج**" أتحدّث..

سنوات التدريب:

في سنة 1797 كوّن العديد من مُلّاك أسهم سفينة القراصنة في البحر الأصفر اتحاداً، واختاروا القبطان شينج - العادل برغم صرامته والذي برهن على شجاعته - ليكون قائداً لأسطولهم.

كان شينج فظّاً عديم الرحمة في تطوافه بالمدن الساحلية ونهبها، فلجأ السكان المذعورون إلى الإمبراطور - وأقنعوه بهداياهم ودموعهم - أن يبعث لهم العون، ولم تلق توسلاتهم آذاناً

---

[2] يشير بورخيس إلى عبارة عائشة لابنها عبد الله آخر الحكام العرب في الأندلس "ابك كالنساء مُلكا لم تصنه كالرجال"

وهي ثيمة كتب عنها أراجون تنويعات منصفة تغاير ما ألفناه عن هذا الحاكم الذي يعتقده مظلوما.

صمّاء، فنُصحوا بأن يُضرموا النار في قُراهم.. وأن يهجروا صيد الأسماك وينتقلوا للعيش في المدن الداخلية وأن يتعلموا فن الزراعة المجهول!

وقد فعلوا ذلك، ولذا - حين وجد القراصنة المحبطون مدناً ساحلية خالية من السكان بدأوا في اعتراض السفن.. وهو نهبٌ أفدح بكثير من مجرد غزو السفن لأنه هدد بإيقاف التجارة بشكل خطير وجدّي..

مرة أخرى استجابت الحكومة الإمبراطورية بشكل حاسم! أمرت الصيادين السابقين أن يهجروا محاريثهم وثيرانهم ويعودوا لمجاديفهم وشباكهم.. هذه المرة حزن الفقراء حين تذكروا الأهوال التي عاشوها من قبل، فأصرت السلطات على طريقة أخرى.. أن تُعيّن الجنرال شينج قائداً للإسطبلات الإمبراطورية.. وكان شينج موافقاً على قبول عرض اشترائه..

لكن مُلاّك الأسهم علموا بالقرار في آخر لحظة.. واتخذت مهانتهم شكل طبق من الأرز قُدِّم مع خضروات مسمومة.. فأثبت الطبق/الهدية فتكه فأسلم (قائد الأسطول وراعي الإسطبلات الإمبراطورية المُعيّن حديثاً) روحه لآلهة البحر.

أمّا أرملته التي غيرتها الخيانة المزدوجة وأكسبتها جلالاً ووقاراً فقد دعت القراصنة إلى اجتماع شرحت فيه القضية وحثتهم أن يرفضوا عفو الإمبراطور الخادع بازدراء، وأن يتخلّوا عن وظائفهم لدى ملاّك الأسهم - الميالين للسم - وعرضت عليهم ما يمكن أن يُسمّى قرصنة حرة.

كانت امرأة ناحلة جدا، بعينين ناعستين وابتسامة شوهتها الأسنان المتسوسة، وكان لمعان شعرها الأسود بفعل الزيت أكثر بريقاً من ضوء عينيها.

وتحت إمرة السيدة شينج انطلقت السفن قُدُماً إلى الخطر في أعالي البحار...

القادة :

على إثر ذلك تتالت ثلاثة عشر عاما من المغامرات المنسقة.

كان الأسطول يتكون من ستة سفن حربية لكل منها علم خاص: أحمر/أصفر/أخضر/أسود/أرجواني، وواحد - الخاص بالقائد - منقوش عليه شارة الحيّة.

كان لقادة السفن أسماء مثل: الطائر، الحجر، كارثة البحر الشرقي، جوهرة الطاقم، موجة الأسماك العديدة والشمس العالية.

ولم تكن قوانين الأسطول التي صاغتها الأرملة شينج بنفسها جذابة، إذ كانت شديدة الصرامة وكان أسلوبها دقيقا موجزاً، خالياً من أزاهير البلاغة المعهودة التي تمنح الأحكام الصينية الرسمية نوعاً من المهابة الخرقاء (وسنقف على مثال صارخ منها حالا) ها هنا طائفة من مواد قوانين الأسطول:-

لا يجوز أخذ أي شيء من البضائع المسلوبة والمواد المنهوبة بصفة خاصة. ولا بد أن يُسجّل كل شيء. وللقرصان أن يأخذ لنفسه حصتين فقط من كل عشر حصص، وتبقى الأجزاء الثمانية من نصيب المستودع الذي يُسمّى **المال العام**. وسيكون **الموت** عقوبة من يأخذ أي حصة من هذا المال العام.

إن ذهب أي رجل إلى الشاطئ خلسة، أو ارتكب ما يُسمّى تجاوز القضبان فإنه سيؤخذ وتصلم أُذناه على مرأى من كامل الأسطول، فإذا كرر نفس الأمر فإن **الموت** هو عقوبته عندئذ.

لا يحقُّ لأي شخص أن يمارِس الرذيلة مع أي أسيرة تُؤخذ من القُرى والمساحات المفتوحة وتُجلب إلى السفينة، ولابد في البدء أن يُستأذن آمر السفينة ثم ينتحي جانباً في السفينة نفسها، ومن يستخدم العنف ضدّ أي امرأة وهو غير مأذون من الأمر فإنه يُعاقب **بالموت**.

وتفيد الأخبار التي جاء بها السّجناء أن مكان الطعام على متن سفن القراصنة كان يتكوّن من بسكويت البحر بشكلٍ رئيسي والفئران المسمّنة والأرز المطبوخ.. وفي أيام القتال يمزَج أفراد الطاقم شرابهم ببارود البنادق، أما في أوقات فراغهم فقد كانت أوراق اللعب المعلمة والزهر المعبّأ والشرب والمقامرة الصينية والأخيلة التي تستثيرها غليونات الأفيون والمصابيح الصغيرة.. وكان السلاح المنتقى سيفين يُعملان في الوقت ذاته..

وقبل الصعود إلى السفن كان البحارة يعمدون إلى رش خدودهم وأجسادهم بماء الثوم كرقية أكيدة ضدّ جروح تُحدثها النار التي تفحها الكمامات.

وكان أفراد الطاقم يسافرون مع نسائهم وأما القبطان فمع حريمه الذين قد يكون عددهم خمسة أو ستة نساء يُجدّدهم إثر الانتصارات المتلاحقة..

الإمبراطور الشاب تشيا – شينج يتحدث:

في شهر يونيه أو يوليو سنة 1809 صدر مرسوم إمبراطوري أُترجم منه المقطع الأول والأخير وقد انتقد أُناس كثيرون أسلوبه:

"إن الرجال البائسين والمعتدين، الرجال الذين يطأون خبزنا، الذين يتجاهلون نداءات جامعي الضرائب وضراعات اليتامى الذين تحمل ملابسهم أشكال التنانين وأبو الهول.. الذين ينكرون الحقائق التي في بطون الكتب.. الذين يسفحون دموعهم وهم بمواجهة الشمال.. أمثال هؤلاء يُعكرون صفو ورخاء أنهارنا والثقة العتيقة السابقة التي لبحارنا..

وإن سفائنهم الواهنة العاجزة لتتحدى العواصف ليل نهار، وهم ليسوا ذوي غرض رحيم، وليسوا أصدقاء رجل البحر الحميمين، وقط لم يكونوا كذلك.. بل هم أبعد ما يكونون عن مدّ يد العون له، بل إنهم ينقضون عليه بوحشية ويجعلونه ضيفا – بدون رضاه – على الحطام، وهدفاً للتمثيل بالأعضاء وتشويه الجسد بل وحتى للموت... وهكذا ينتهك هؤلاء الرجال قانون الكون وخطاياهم تجعل الأنهار تفيض ويغرق طوفانها الضفاف ويغمر السهول، وتجعل الأبناء يخرجون عن طوع آبائهم مثلما تتبادل مبادئ الجفاف وقوانين الرطوبة مواضعها..

ولذا فإني أعهد إليك – أيها الأميرال كواولانج – بمعاقبة هذه الجرائم.. أما العفو فهو من صلاحيات الإمبراطور فقط، أي واحد من رعاياه يمنحه يكون متجاوزاً لحدوده.. فكن قاسياً.. كن عادلاً.. كن مُطاعاً.. كن مُنتصراً.

كانت الإشارة العابرة إلى السفن العاجزة كذبة بالطبع لزيادة شجاعة كواولانج وأفراد بعثته.. بعد تسعين يوماً اشتبكت قوات شينج مع قوات الإمبراطور، وتقاتلت حوالي ألف سفينة من طلوع الشمس إلى غروبها.. وقد تعالت أصوات كورال صاحب الحدث هي مزيج متعدد من أصوات أجراس، قرع طبول، طلقات مدافع ولعنات وأجراس قرصية وتنبؤات.

تحطّم أسطول الإمبراطور ولم يجد الأميرال كواولانج فرصة لممارسة الرحمة التي مُنع منها ولا الوحشية التي حُث عليها، واختار الأميرال كواولانج نفسه أن يقترف طقساً - لا يقدم عليه جنرالاتنا المهزومون - وهو أن ينتحر.

السواحل المرعوبة وضفاف الأنهار المذعورة:

بعدئذ أبحرت الستمائة سفينة الشراعية الصينية والأربعون ألف قرصان المنتصرون في أسطول الأرملة المتعجرفة باتجاه مصب نهر زهو جيانغ يبذرون النيران والاحتفالات المقيتة وينثرون أيتاماً يُمنة ويسرة.. قرىً بأكملها دُمّرت تماماً وبلغ عدد السجناء في إحداها أكثر من ألف أسير.

أما المائة وعشرون امرأة اللائي هربن للّواذ بحقول القصب وحقول الأرز فسرعان ما فضحهم بكاء طفل واقتيدوا ليُباعوا إماءً في ماكاو... وبرغم نأيهم والمسافة البعيدة إلاّ أنّ دموع الحزن وصرخات الرثاء والبكاء على القتلى التي نتجت عن عمليات النهب بلغت مسامع تشيا شينج: ابن ماء السماء..

وقد سمح بعض المؤرخين لأنفسهم بالاعتقاد أن تأثر

الإمبراطور بهزيمة بعثته العقابية كان أكثر من تألمه لما أصاب رعاياه من نهب وإتلاف..

ليكن ذلك ما يكون، فقد نظم الإمبراطور بعثة ثانية رهيبة من ناحية أعلامها وبحارتها وجنودها، قدراتها القتالية، زادها وعتادها وقارئو الطوالع وحكماء تولوا تهدئة الجمع عند المصائب.

هذه المرة كانت القوة تحت إمرة الأميرال تينج كوي هيو.. وقد أبحرت جحافل السفن إلى مصبّ نهر "زهوجيانغ" ليحاصروا أسطول القراصنة **ويقضوا عليهم.**

هرعت الأرمل لتعد العدة للمعركة.. كانت تعلم أنها ستكون معركة شاقة وعسيرة جداً، بل إنها لتكاد تكون معركة يائسة، فرجالها قد مالوا للنعومة بعد ليالٍ عديدة من النهب والسلب والبطالة، لكن المعركة لم تبدأ. أشرقت الشمس في سلام ثم غابت في حقول القصب المتماوجة بلا عجلة، أما الرجال والأسلحة فقد كانوا يرقبونها وينتظرون.. كانت الأماسي أقوى منهم وكان نوم القيلولة منتشراً ولانهائياً..

التنين وأنثى الثعلب:

... ومع ذلك ففي كل مساء كانت قطعان من تنانين خفيفة الوزن تحلّق في كبد السماء برهافة فوق صفحة المياه وفوق سطوح سفن الأعداء.

كانت هذه الطائرات الورقية التي تشبه المذنّبات أجساداً هوائية من أوراق الأرز والقصب.. وكانت الذهبية والحمراء منها لها نفس المواصفات.

تأملت الأرملة حركة الشهب بعناية بالغة وقرأت فيها حكاية عتيقة مشوشة عن التنين الذي لم يكف عن رعاية أنثى الثعلب قط برغم الجحود الطويل والجرائم المستمرة.

في السماء تناقص القمر ونحل وبقيت أشكال أوراق الأرز والقصب تُعيد كتابة الحكاية ذاتها كلّ مساء وبتنويعات لا تكاد تُدرك.

كانت الأرملة متعبة فأطالت التفكير والتأمل.

حين كبر القمر في السماء وفي المياه التي شابتها حمرة طفيفة بدا أن الحكاية على وشك بلوغ نهايتها.. ولم يكن بمقدور أحد أن يتنبأ إن كانت العقوبة اللانهائية أو العفو اللانهائى هو الذي سيكون مصير أنثى الثعلب.. غير أن النهاية المحتومة أياً تكن بدت قريبة جداً.

فهمت الأرمل ذلك.

ألقت سيفيها في النهر.. جَثَتْ في قاع زورق وأمرت أن تؤخذ إلى بارجة الأميرال في أسطول الإمبراطور.

كان الوقت مساءً

امتلأت السماء بالتنانين

هذه المرة كانت التنانين صفراء..

حين صعدت إلى السفينة نطقت بجملة واحدة

إن أنثى الثعلب تلتمس جناح التنين

التمجيد:

تقول صحائف التاريخ إن أنثى الثعلب قد منحت العفو الذي التمسته وأنها خصصت سنوات عمرها الأخيرة لتهريب الأفيون.. ولم يعد اسمها الأرمل بل صارت الثريا الطاهرة ذات التعاليم الصحيحة.

ويذكر أحد المؤرخين أنه منذ تلك الفترة بدأت السفن تمر وتعاود المرور في سلام.

صار كل شيء هادئاً في عرض البحر الأربعة وعاش الناس في سلام وبحبوحة، باع الرجال أسلحتهم واشتروا ثيراناً لحرث حقولهم.. وقد دفنوا النذور وأدوا الصلوات في أعالي التلال ومتعوا أنفسهم بالغناء وراء الأستار أثناء النهار.

القاتل الضجر: بيل هاريفان

هي صورة أراضي أريزونا قبل أية صورة أخرى، أريزونا ونيو مكسيكو.. صورة منظر طبيعي خلاب تمور تحته مناجم الذهب والفضة.. منظر طبيعي أخاذ تتخايل فيه الرياح وتنتصب في أنحائه ذرا تلال متدرجة بديعة الجمال وزاهية الألوان، منظر يتجلى فيه وهج هيكل عظمي أبيض بعد أن عرقته الصقور والبواشق وجردته من لحمه تماما..

في هذا المنظر الطبيعي الأخاذ ثمة صورة أخرى.. صورة بيلي ذاكيد الفارس الثابت على صهوة حصانه، الشاب ذو الطلقات النارية عالية الصوت التي تدوخ الصحراء وتذهلها. هو الرامي الذي يسدد رصاصاته الخفية لتقتل عن بعد كأنما بمفعول سحر.

صحراء قاحلة لاهبة تعج بالمعادن وهو الواقف على شفا طفولة مات في سن الواحدة والعشرين وهو مدين للعدالة الإنسانية بواحد وعشرين قتيلا دون احتساب المكسيكيين.

المقاطعة اليرقية

في سنة 1859 ولد الذي سيعرف فيما بعد تمجيدا ورعبا باسم بيلي ذاكيد في مسكن تحت الأرض في مدينة نيويورك ويروى أن رحما إيرلنديا عتيقا هو الذي حمله لكنه نشأ وتربى بين الزنوج.. وتمتع – مع شعره الكارثي وفوح عرق الدهماء – بالأولوية الممنوحة من البقع والشعر الأصحر الذي يتماوج فيه الأحمر بالبني ، فمارس غرور بياضه، كان كذلك نحيلا ذا بنية عظيمة ومزاج سريع التقلب وفم وفير البذاءة.

حين بلغ الثانية عشر كان قد انضم إلى عصابة سوامب آنجلز

التي كانت مجاري المدينة عرينها، كانوا يتقاطرون من تلك المتاهة النتنة في الليالي التي يضوع فيها شذى ضباب محترق ليتتبعوا خطى بحار ألماني ما وبضربة على رأسه يوقعونه أرضا ويجردونه من كل ما بحوزته وحتى ملابسه الداخلية ثم يكرون راجعين إلى ذلك السافل، كانوا تحت قيادة زنجي أبيض الشعر اسمه جونسان وهو عضو في عصابة "غازهاوس" مشهورة بتسميم الجياد.

أحيانا ومن نافذة في مبيت منزل منكس قرب المياه، تلقي امرأة ما جردلا من الرماد على رأس أحد المارة وفيما هو مختنق يحاول التقاط أنفاسه يهبط عليه أفراد العصابة ويسحبونه إلى درج القبو ثم ينهبونه، هكذا مضت سنوات تدريب بيل هاريغان الذي سيصير في المستقبل بيلي ذاكيد.. هو لم يكن يحس أدنى احتقار للإيهامات التخييلية في المسرح بل كان يحب الذهاب الى المسرح – وربما دون أن ينتابه أي إحساس غامض بنذر خطر قادم لأن المسرح كان يقص رموز وحروف مصيره هو ذاته – ليشاهد عروض رعاة البقر.

الذهاب غربا

وإذا كانت المسارح المكتظة في الباروي (التي يتعالى صراخ جمهورها حين يتأخر رفع الستارة عن موعده المحدد: ارفعوا تلك الخرقة) تقدم الكثير من أوبريتات الجياد بما فيها من حروب وتصويب بالنيران فإن السبب هو أن أمريكا كانت في ذلك الوقت تعيش انبهارا بالغرب، كان الذهب ملقى وراء الشمس الغاربة في

نيفادا وكاليفورنيا.

القاتل الضجر

وراء الشمس الغاربة كانت الفؤوس التي تصرم أشجار الأرز.. الوجوه البابلية الهائلة للجواميس.. أفضل قبعات برغهام يونج.. سرير زواجه المزدحم بقاطنيه.. طقوس الرجل الأحمر وغضبه المستعر.. هواء الصحاري الحبيب إلى النفس.. البراري البكر.. أرض العناصر التي يجعل قربها القلب يخفق بسرعة كالدنو من البحر، لقد كان الغرب يومئ إليهم داعيا، امتلأت تلك السنوات بدمدمة مستديمة - أصوات آلاف الأمريكيين الذين يستقرون غربا. في سنة 1872 لحق بتلك المواكب المتأهب للاعتداد والملتف حول نفسه كثعبان أرقط بيل هاريغان الهارب من زنزانة مستطيلة.

مكسيكي يصرع

إن التاريخ الذي يسرد قصصه بخيالات غير متوالية كمخرج صور متحركة يعرض علينا صورة مشرب في كبد الصحراء العاتية وكأنه يتوسط لجج البحر..

الزمان ليلة قابلة للتغيير في سنة 1873. المكان على وجه التحديد في موضع ما في ليانو استكاودو في نيو مكسيكو، الأرض تكاد تكون مستوية، لكن السماء ذات سحب مثقلة وأشلاء عواصف ومزق ضوء قمري محجوبة بشقوق مياه جفت، وجبال تناثرت، وعلى الأرض ثمة جمجمة بقرة.. وعواء عيون ذئب البراري

(القيوط)، في الظلام جياد جميلة وعمود ضوء طويل قادم من المشرب.

في الداخل ترتمي مرافق الرجال الأشداء على إفريز المشرب فيما يحتسون صهباء تحرض على القتال وتومض في أيديهم عملات فضية تتجلى فيها رسوم الثعابين والنسور..

يغني مخمور غناء خاليا من الإحساس..

بعض هؤلاء الرجال يتحدثون لغة تكثر فيها هسهسة السين.. لابد أنها الأسبانية مادام الذين يتحدثونها مكروهين من قبل الآخرين..

بين هؤلاء السكارى جرذ البيوت الجماعية الحقيرة ذو الشعر الأحمر بيل هاريغان الذي أوعب معدته دورين وأخذ يجادل بشأن طلب الثالث، ربما لأنه كان مفلسا تماما، رجال هذه الصحراء كانوا محيرين بالنسبة له.

كان يراهم ضخاما هائلي الأجسام يبثون فيه الرعب، كانوا بمثل عتو العواصف، سعداء وذوي معرفة هائلة بكيفية التعامل مع قطعان الماشية البرية والجياد الكبيرة.. فجأة يسود صمت تام.. لا يتجاهله سوى المغني المخمور ذي الأذن النحاسية، عملاق هائل مفتول العضلات مكسيكي الهوية بوجه امرأة هندية كان قد دخل المشرب وقد زادته القبعة المكسيكية والمسدسان اللذان في وسطه طولا، فبدا أكبر من حجمه الحقيقي حتى.. وبلغة إنجليزية خشنة حيا أبناء الساقطات الغرينغو متحديا، لم يجرؤ أحد على قبول التحدي. يسأل بيلي من هو هذا المكسيكي؟ فيهمس له أحدهم بوجل أنه بيلساريو فيلاغران من شيهواهو في الحال تدوي طلقة

نارية لقد صوب بيلى الذي كان محتميا بطوق من الرجال مسدسه إلى المقتحم.

سقط الكأس من يد فيلا غران، سقط بعده الرجل ولم تبق حاجة لطلقة أخرى، ودون أن ينظر إلى الرجل استأنف بيل حديثه حيث توقف وقال متشدقا "هل هذا صحيح، حسنا أنا بيل هاريغان من نيويورك" الرجل الثمل ما زال يواصل الغناء الذي لا يكترث له أحد.

ما تلا ذلك لا يصعب التنبؤ به، يصافح بيل كل الرجال الذين حوله متقبلا الإطراء والهتاف وكؤوس الضيافة، يلحظ أحدهم أن مسدس بيلى خال من العلامات المميزة، فيعرض أن يضع واحدة يخلد بها مقتل فيلا غران فيحتفظ بيلي ذاكيد بسكين ذلك الشخص، لكنه يهمهم بأن مقتل مكسيكي كهذا لا يستحق أن تضع له شارة..

لكن ذلك قد لا يكون كافيا فيفرش بيلي بطانيته وينام متباهيا بجوار القتيل حتى الصباح.

القتل للقتل

نتيجة لما شاع عن خبر تلك الطلقة (في سن الرابعة عشر) ولد البطل بيلي ذاكيد ودفن المتقلب المتلون (بيل هاريغان) لقد ارتفع الولد الهزيل ساكن المجاري ومحطم الجماجم إلى مستوى فرسان الحدود.. صار خيَّالا إذ تعلم أن يجلس مستقيما على صهوة الفرس مثلما يفعل أهالي تكساس وواينج بدلا من الميل للعداء كأهالي أوريغون وكاليفورنيا.

والواقع أنه لم يرق يوما إلى مستوى أسطورته الشخصية وإن

ظل يقترب منها رويدا رويدا مع مرور الوقت فقد تبقى من المجرم النيويوركي الخطير أشياء حية في إهاب راعي البقر وقد اختص المكسيكيين بالكراهية التي غرسها فيه الزنوج من قبل..

ولكن كلماته الأخيرة سلسلة من اللعنات كانت دوما باللغة الأسبانية.. وقد تعلم من المتشردين فن قيادة القطيع وفنا آخر أكثر صعوبة هو قيادة الرجال وقد جعله كلا الفنيين سارق قطعان جيداً.

أحيانا كانت الغيتارات ومواخير المكسيك تصله وتجتذبه إليها.. مع نوبات جنون الأرق المرعبة كان ينغمس في متواليات نشوة تتواصل على مدى أربعة أيام وأربع ليال، أخيرا حين ينتابه الرفض يتولى مسدسه تسديد الحساب.

وطوال الفترة التي لم يخنه فيها الإصبع الذي على الزناد ظل أكثر الرجال إثارة للرعب (وربما أكثرهم خواء ووحدة)في منطقة الحدود تلك..

بات غاريت صديقه آمر البوليس (الشريف) الذي قتله آخر الأمر. قال مرة لقد تمرنت طويلا على إصابة الهدف وأنا أقتل الجواميس.

أجابه بيلي برقة "أنا تمرنت أكثر منك وأنا أقتل البشر".

وقد ضاعت التفاصيل وفقدت للأبد، لكننا نعرف أنه كان مسئولا عن مقتل واحد وعشرين رجلا دون احتساب المكسيكيين. وعلى مدى سبع سنوات من الخطورة والجسارة غمس نفسه في الرفاهية المسماة بالأخطار.... وفي ليلة الخامس والعشرين من يوليو سنة 1880م جاء بيلي ذاكيد.. يعدو على فرسه في الشارع الرئيسي في قلعة بنتر على متن فرسه الأرقط كانت الحرارة

لاهبة ولم تكن المصابيح قد أضيئت بعد أن كان الشريف غاريت جالسا في ظلته المسقوفة فأطلق عليه النار وأصابه في بطنه فاستمر الفرس راكضا أما الفارس فسقط في شارع الأوحال.. صوب إليه غاريت رصاصة أخرى أما البلدة التي عرفت أن الجريح هو بيلي ذاكيد فقد أقفلت محلاتها وأغلقت نوافذ البيوت، كان موت بيلي بطيئا تجديفيا متزندقا، حين ارتفعت الشمس إلى السماء بدأ أهالي البلدة يقتربون منه، دنا منه رجل أخذ مسدسه، كان الرجل ميتا، لاحظ أهالي البلدة المظهر التافه الذي يكسو وجوه الموتى في العادة، حلقوا شعر رأسه، ألبسوه بذلة فاخرة وعرضوه إرهابا ومكرا في نافذة أحسن متجر في البلدة، جاء رجال من أميال بعيدة على ظهور الخيل.. في اليوم الثالث اضطروا لوضع مكياج على وجهه في الرابع وسط سرور عميم دفنوه...

الهالة

أنا قاطع أخشاب . اسمى لا يهم . الكوخ الذى ولدت فيه والذى سأموت قريبا فيه يقبع فى حافة الغابة ويقولون إن هذه الغابة تتمدّد حتى تبلغ المحيط بالدنيا كلّها ويقولون إن البيوت الخشبية مثل بيتى تسافر فى المحيط ... أنا لا أعرف.. ولم أر ذلك قط وأيضاً لم أر الجانب الآخر من الغابة.

حين كنا صغارا جعلنى أخى الأكبر أقسم له أننا فيما بيننا سنقطع الغابة إربا إربا حتى لا تبقى شجرة واحدة منتصبة . أخى قد مات وأنا الآن أسعى لشىء آخرٍ وسأظلّ أسعى إليه..

هناك حيث تغرب الشمس شقٌ أتخلله بأصابعى كمن يصطاد سمكا وفى الغابة ذئاب لا تخيفنى ففأسى لم تخذلنى قط. أنا الآن لا أذكر كم أنا عجوز لكنى أدرك أننى هرمت فعيناى لم تعد تبصر.

وفى القرية التى لم أعد أغامر بالذهاب إليها خشية أن أتوه يقولون إننى بخيل ولكن كم يستطيع قاطع أخشاب أن يدّخر؟

أنا أغلق باب بيتى بصخرة خشية أن تتنسل الثلوج إلى الداخل، ذات مساء سمعت وقع خطى ثقيلة تتدحرج ثم سمعت طرقا. فتحت الباب ودخل شخص غريب، كان طويلا وعجوزا يتلفع ببطانية عتيقة ومهترئة وفى وجهه ندبة تشطر وجهه، بدا وكأن السنوات منحته من الجلال والمهابة أكثر مما كسته من الضعف ولكننى أدركت أنه صار من العسير عليه أن يمشى دون الاتكاء على عصاه.

تبادلنا بضع كلمات لم أعد أذكرها الآن .أخيرا قال الرجل أنا

ليس لى بيت وأنام حيث أستطيع.. وقد تجولت فى ساكسونى كلها". كانت تلك الكلمات مناسبة لسنه فأبى كان يتحدّث دائما عن ساكسونى التى يسّميها الناس الآن إنجلترا.

كان فى المنزل بعض خبز وسمك. لم نتكلم ونحن نأكل.

بدأت تمطر.. جمعت بعض الجلود وصنعت له فراشا من القش على الأرضية المتّسخة حيث مات أخى. حين حلّ الليل خلدنا للنوم، كان الوقت قريبا من الفجر حين غادرنا المنزل. توقف المطر وتغطت الأرض بثلوج جديدة.

أوقع الرجل عصاته وطلب إلى أن التقطها.

"ولم أفعل ما تمليه علىّ؟" قلت له

"لأننى ملك" أجابنى.

خلته مجنونا فالتقطت العصا وأعطيتها له. حين تحدث ثانية تغيرت نبرة صوته.

"أنا ملك سيكجنز وقد قدتهم لانتصارات عديدة فى معارك ضاربة. ولكن فى الساعة التى حمّ فيها القضاء فقدت مملكتى. اسمى هو آيسرن وأنا من سلالة أودين".

"لست من عبدة أودين. أنا مسيحى".

استمّر فى حديثه وكأنه لم يسمعنى

"إننى أهيم على وجهى فى دروب المنفى لكننى مازلت ملكا لأن الهالة لم تزل معى. هل تريد أن تراها؟"

فتح كفه وأرانى راحته المعروقة، لم يكن بها شىء، كانت يده فارغة. عندئذ فقط تحققت أنه كان يبقى يده مزمومة على الدوام.

نظر إلى عينى "لك أن تلمسها".

كنت شاكًا لكننى مددت يدى وبرؤوس أصابعى لمست راحة يده. أحسست بشيء بارد ورأيت التماعة خاطفة ثم انغلقت يده. لم أقل شيئا. "إنها هالة أودين" قال الرجل بصوت تجلى فيه الصبر كمن يحادث طفلا "إن لها جانب واحد وهى الشيء الوحيد فى الأرض الذى ليس له سوى جانب واحد ومادمت أزمّ قبضتى عليها فسأبقى ملكا" "لدى فى الكوخ صندوق مخبوء مليء بالمال. عملات ذهبية تلمع مثل فأسى" قلت للمتشرد الذى مازلت أكرهه حتى اليوم" فإن أعطيتنى هالة أودين منحتك المال" "لن أفعل" قال بفظاظة"

"إذا بوسعك أن تمضى لشأنك" استدار ولم يقتض الأمر أكثر من ضربة واحدة من الخلف على قلّة رأسه. ترنّح وسقط. لكنه فتح راحته فيما هو يهوى ورأيت وهج اللمعان فى الهواء. علّمت المكان بفأسى وجررت الجثة فى السرير. وفى موضع أعرف أنه منتفخ ألقيت الجثة. حين عدت إلى منزلى بحثت عن الهالة لكنى لم أعثر عليها ومازلت أبحث عنها منذ سنوات...

1- أودن: بحسب قاموس وبسترهو إله الفن والثقافة والحرب والموتى وفق المنظور الأسطورى لأهالى النرويج. وهو مماثل لمفردة Woden فى المرجعية الألمانية.

2- النص المترجم هنا منقول عن الأعمال السردية المجموعة The Collected Fiction التى صدرت ضمن مشروع ثلاثى فى مئوية المبدع العالمى بورخيس عن دار بنجوين. لندن 1998. وقد تولى مسئولية هذا المجلد الضخم البروفيسور اندرو هيرلى أستاذ الأدب بجامعة بورتريكو.

25/أغسطس/ 1983

عرفت من ساعة المحطة الصغيرة أن الوقت تجاوز الحادية عشر، أخذت أمشي في عمق الليل قاصداً الفندق ... أحسست – مثلما حدث في الماضي – باستسلام وراحة من النوع الذي نشعر به في الأماكن التي تألفنا. كانت البوابة العريضة مفتوحة والمنزل الريفي الضخم متلفع بالظلام .. دخلت في الدهليز الذي تعكس مراياه الشاحبة أخيلة نباتات الصالون .

الغريب أن المالك لم يعرفني . قلب لي دفتر الضيوف لأوقع فيه ، التقطت القلم المقيد بسلسلة بالسجل . غمسته في المحبرة النحاسية ثم – وعلى حين – انحنيت على الدفتر المفتوح ووقعت أولى المفاجآت التي كانت تلك الليلة تدخرها لي.فاسمي خورخي لويس بورخيس كان مكتوباً ولم يكن الحبر قد جفّ بعد " حسبتك قد صعدت إلى فوق" قال لي المالك ثم نظر إليّ بمزيد من التدقيق وصحح لنفسه :" عذراً سيدي ، إنك تبدو كالسيد الآخر تماماً ولكنك أصغر سناً "

" في أي غرفة هو؟ " تساءلت.

" لقد طلب الغرفة رقم 19" جاءت الإجابة .

كان الأمر كما كنت أخشى.

ألقيت القلم ثم عدوت إلى الأعلى . الغرفة 19 في الطابق الثالث ، كانت تطل على ممر حزين مهترئ ، وكان به مقعد من نوع كراسي المتنزهات ، ووفقاً لما أتذكر كان محاطاً بقضبان حديدية . كانت الغرفة أكثر غرف الفندق انعزالاً .

حاولت أن أفتح الباب فانفتح بلمسة يدي . كان الضوء العلوي مايزال مشتعلاً . وفي النور " الذي بلا شفقة" وجدتني إزاء نفسي

.وهناك في السرير النحاسي الضيق ، كنت ممدداً – أكبر سناً ، شبه متلاش، وناحلاً – على ظهري.

عيناي كانتا تجولان بنظرات فارغة تحدجان باتجاه السقف. بعدئذ سمعت الصوت . لم يكن صوتي بالضبط ، كان الصوت الذي أسمعه دائماً في تسجيلاتي. صوتاً غير بهيج وبلا تموجات.

" ياللغرابة ! " كان يقول : نحن اثنان لكننا واحد .. ولكن لاشيء غريب في حلم.

" إذاً،" قلت بهلع: " فكل هذا حلم ؟"

" اجل، أنا متأكد، إنه حلمي الأخير . أشار نحو زجاجة فارغة على المنضدة الرخامية.

" أما أنت فلديك الكثير لتحلمه قبل أن تجيء إلى هذه الليلة .. ماهو تاريخ اليوم بالنسبة لك؟"

" لست متأكداً، " قلت بشيء من الفحيح " لكن يوم أمس كان عيد ميلادي الواحد والستين.

" حين تبلغ هذه الليلة في حال يقظتك مرة أخرى .. ستكون ليلة البارحة عيد ميلادك الرابع والثمانين . اليوم هو الخامس والعشرون من أغسطس 1983م"

" موعد بعيد لمن ينتظر."

" ليس بالنسبة لي " قال بإيجاز " بالنسبة لي لم يتبقَ زمن فسأموت في أي لحظة .. وفي أي لحظة قد أتلاشى في ما هو مجهول بالنسبة لي وما زلت أحلم بقريني .. تلك الموضوعة التي أخذتها من ستيفنسون والمرايا"

أحسست أن .... اسم ستيفنسون كان وداعاً لا تشدقاً فارغاً

.. فهمت

كنت أنا هو ... أدركت ذلك .

إن إيجاد شكسبير قادر على إجتراح التعبيرات الحالمة (و) يقتضي أكثر من كل لحظات الحياة الدراماتيكية القصوى .

لكي أشتت انتباهه .. قلت:

" كنت أعرف أن هذا سيحدث لك .. فهنا تحديداً وفي هذا الفندق قبل عدة سنوات وفي إحدى الحجرات في الطابق السفلي بدأنا كتابة مسودة هذا الانتحار.

" أجل" أجاب ببطء كأنه يستعيد شتات الذكريات ويضفرها ببعض.

"لكنني لاأرى أية صلة. في تلك المسودة ابتعت تذكرة ذات اتجاه واحد إلى أدروجو ، وحين استيقظت في فندق لاس ديليكياس ذهبت إلى الغرفة 19 أبعد الغرف عن البقية .. هناك اقترفت انتحاري "

" ولذلك أنا هنا" قلت مجيباً/ معلقاً

" هنا ، لقد كنا دوماً هنا .. في هذا المنزل في كال مايبو أحلم الآن بك (أحلمُك) .. وهنا في هذه الغرفة التي كانت لأمي سأتخذ درب الرحيل.

" الغرفة التي كانت لماما؟" رددت دون رغبة في الفهم.

" أحلمك في الغرفة (19) في الطابق العلوي قرب ممر السطح.

" من يحلم بمن؟" أعرف أنني أحلمك ولا أدري إن كنت تحلم بي والفندق الذي في ادروجو تحطم منذ سنوات وسنوات عشرين

وربما ثلاثين من يدري ؟ ..

"انني أنا الحالم " أجبت بمسحة من تحد.

"ألا تدرك أن أول ماينبغي أن تتحقق منه هو إن كان ثمة حالم واحد فقط أم رجلان يحلمان ببعضيهما؟"

"أنا بورخيس . رأيت اسمك في السجل وصعدت"

"ولكني أنا بورخيس وأنا الآن محتضر في منزل في كال مايبو"

ساد صمت ثم قال لي:

" فلنحاول أن نجري اختباراً .. ماهي اللحظة الأشد هولاً في حياتك؟"

فتكلمنا في الوقت نفسه ، كنت أعرف أن كلينا كان يكذب، أيّاً منا لم يكن صادقاً.

أضاءت وجهه المتغضن إبتسامة شاحبة . أحسست أن تلك الابتسامة كانت على نحو ماتعكس ابتسامتي.

"لقد كذبنا على بعضنا" قال هو " لأننا نحس أننا اثنان لا واحد، الحقيقة أننا اثنان ولكننا (شخص) واحد."

كنت قد بدأت أحس الإستفزاز والضيق من هذه المحادثة وأخبرته بذلك. فأضاف عندئذ "وأنت هناك في سنة 1983 لن تخبرني أي شيء عن السنوات التي تركتها"

"ماالذي أستطيع أن أخبرك به يابورخيس البائس؟ إن سوء الطالع الذي اعتدته سيتكرر، ستترك وحيداً في هذا المنزل ، وستلمس كتباً ليس بها حروف وميدالية "سويدنبرغ" والطبق الخشبي ذي الصليب الفيدرالي ، العمى ليس هو الظلام .. إنه

شكل من أشكال الوحدة ، ستعود إلى آيسلنده
ايسلندا المطوقة بالبحر .
" في روما ستعاود تلاوة أشعار كيتس الذي كتب اسمه ككل الرجال على صفحة الماء "
" أنا لم أذهب إلى روما مطلقاً "
" ثمة أشياء أخرى ، ستكتب أجمل قصائدنا ... مرثية"
" في موت ... ، بدأت أقول ولم استطع أن أنطق الاسم.
" لا، ليست هي ، فهي ستعيش بعدك ،"
أخلدنا إلى الصمت ثم تابع هو:
" ستكتب الكتاب الذي حلمنا به طويلاً ، وفي سنة 1979 سترى أن مسارك المفترض لم يكن سوى سلسلة من المسودات ، مسودات منوعة وستذعن للإغراء العقيم والخرافي لتكتب كتابكُ العظيم الذي أنزل علينا فاوست جوته سلامبّو ويوليسز . لقد ملأتُ – وهذا أمر لايصدّق أن أقوله – العديد من الصفحات.
" وفي النهاية تحققت انك قد فشلتَ "
بل أسوأ من ذلك ، أدركت أنها كانت رائعة بكل مافي الكلمة من معنى ، فنواياي الحسنة لم (تبق لأكثر من) تدم أبعد من الصفحات الاولى .
الصفحات التي تلت احتوت المتاهات ، الخناجر، الرجل الذي يظن نفسه خيالاً، الخيال الذي يحسب نفسه حقيقة/ي، النمر الذي يطوف في الليل ، المعارك التي تجري في دم المرء، خوان مورانايا الأعمى المميت ، صوت ماسيدونيو فيرنانديز ، السفن المصنوعة من أظافر الموتى ، الانجليزية العتيقة التي تردد في

الأمسيات.

"ذلك المتحف يسترعي الانتباه" علقت ساخراً

" هذا إن لم نذكر الإستعادات (الأشياء) المزيّفة ، ازدواج الرموز، الكتالوجات الطويلة ، التعامل البارع مع الحقيقة العادية / النثرية ، التواؤمات غير الكاملة ، التي يكتشفها النقاد باغتباط ، والاقتباسات التي لاتكون دوماً موثوقة..

" وهل نشرتها؟"

" ظللت أعبث – بلا اقتناع – بالاحتمال المليودرامي لتدمير الكتاب ، حرقه بالنار ربما .. لكنني انتهيت إلى نشره في مدريد باسم مستعار واعتبرت مقلداً لبورخيس...

شخصاً – لديه نقطة ضعف كونه – يعيبه انه ليس بورخيس ولكنه يبرز كل الخصائص الخارجية للأصل.

" لست مندهشاً " قلت " فكل كاتب سيصبح عاجلاً أم آجلاً أسوأ حواريه هو ، وأقلهم ذكاء "

وذلك الكتاب كان احدى الطرقات التي قادتني إلى هذه الليلة .. الآخرون.. إذلال الشيخوخة .. الإعتقاد بأنك قد عشت كل الايام من قبل

" لن أكتب ذلك الكتاب " قلت

" بل ستكتبه برغم ذلك . إن كلماتي التي هي حاضرة الآن ستصبح ذات يوم أكثر مايتبقى من ذكريات الأحلام غموضاً ، "

ألفيت نفسي أضيق ذرعاً بلهجته الجازمة.. اللهجة التي استخدمها في الصفوف التي أدرس لها، كنت متضايقا جداً من الطريقة التي كنا (نشبه بعضاً) نتشابه بها والتي أتاحت له أن

يستغل الحصانة التي وفرها له الدنو من الموت "
هل أنت متأكد؟ سألته لأنال منه قليلاً " انك سوف تموت؟ "
"نعم" أجاب "انني أحس بعذوبة وراحة لم أشعر بها قط من قبل . لاأستطيع أن أصفها إذ تتطلب كل الكلمات تجارب مشتركة ، لماذا تبدو متضايقاً مما أقول؟ "
" لأننا نتشابه كثيراً . امقت وجهك فهو (صورة) كاريكترية من وجهي وأمقت صوتك لأنه تقليد ساخر لصوتي .. واكره طريقة ترتيب الكلمات لديك لأنها طريقتي ....
" وأنا كذلك" قال مبتسماً " ولذا قررت أن أقتل نفسي .
صدح طائر في الحديقة
" إنه الأخير " قال الرجل الآخر (ثم) حركني نحوه . بحثت يده عن يديّ استبد بي الهلع وخشيت أن تتلامس أيدينا.
" لقد كان الرواقيون يعلموننا " قال لي " أن لانشتكي من الحياة – فباب السجن مفتوح . لقد كنت دوما أعي ذلك .. كنت أنا نفسي أرى الحياة كذلك . لكن الكسل والجبن قعدا بي . قبل اثني عشر يوماً كنتُ ألقي محاضرة في لابلاتا عن الكتاب الرابع من الانيادة. فجأة وبينما كنت أقوم بعملية تقطيع عروضى للبحر السداسي اهتديت إلى السبيل التي سأسلكها وأخذت قراري ومنذ تلك اللحظة وأنا أحس نفسي منيعاً حصيناً.
يوماً ما ستلقى ذلك المصير .. وستأتيك لحظة التجلي تلك فيما أنت منهمك في قراءة اللاتينية وتلاوة اشعار فيرجيل.. لكنك حتماً ستنسى هذا الحوار التنبؤي العجيب الذي يجري في موضعين وزمانين مختلفين

وعندما تحلم في المرة الثانية ستكون أنت أنا وستكون حلمي لن أنساه وسأكتبه غداً "

" سيقبع في أعماق ذاكرتك تحت تيارات أحلامك . وحين تكتبه ستحسب أنك تنسج حكاية فانتازية . ولن يكون ذلك في الغد .. بل بعد سنوات طويلة من الآن.

كفّ عن الحديث . أدركت أنه قد مات . وبطريقة ما متّ معه .. وبحزن ملت على وسادته ولكن لم يكن ثمة أحد.

هربت من الغرفة . في الخارج لم يكن ثمة فناء ، لم تكن هناك سلالم رخامية منزل صامتاً عظيماً ، لاأشجار سرو، لاتماثيل ومامن ساحة للعرض في حديقة ، لانواعير، لابوابة في السور المحيط بالفندق في مدينة أدورجي

في الخارج كانت أحلام أخرى تنتظر.

بعد النص: في المقطع الشعري الذي صدرنا به هذا النص لمحمد الثنيتي ثمة مجال للدراسة النصّية عبر تقنية التناص المعروفة خاصة وأن نص بورخيس هذا يترجم إلى العربية للمرة الأولى فيما نعرف. ويزيد من فداحة هذا اليقين أن هذا النص من آخر ماكتب أديب القرن التاسع عشر كما كان يحلو لهذا البصير أن يصف نفسه. قبل ذلك كان قد نسج للفكرة غزلا آخر في مقطوعة بعنوان بورخيس وأنا فاقتضى التنويه.

الميت

أن يخوض رجل فى المفازة الشاشعة على طول الحدود البرازيلية – الأرجنتينية ثم يصبح زعيما لعمليات التهريب دون أن يتحلى بأية فضيلة سوى الشجاعة أمر قد يبدو للوهلة الأولى مستحيلا ، وللذين يرون هذا الرأى سأروي قصة بنجامين أورتالورا الذي لم يتبق منه أكثر من ذكرى باهتة فى منطقة (بالجنبرا) إذ مات بنفس القانون الذى استنه وعاش بموجبه فاردي قتيلا بالرصاص على حدود ريوجراند راسل ولست أعرف تفاصيل مغامرته . وحالما أطلع عليها سأفتح هذه الصفحات وأتزيد فيها ، أما الآن فقد يشفع لنا هذا الملخص ....

في حوالي 1891 م كان بنجامين أورتالورا فى التاسعة عشرة يميزه حاجب خفيض وعينان براقتان دون حيوية أبناء الباسك وقوة أجسامهم ، وكانت سكين ألقيت فى ساعة سعد مواتية هي التي أعلمته بشجاعته وغدا لا يأبه لموت خصومه ، بل ولا يفقد رباطة جأشه أو يحس بحاجة ماسة للهرب من الأرجنتين ، فيمكث حتى يعطيه رئيس الأساقفة خطاب توصية لشخص يدعي (أزيفيدو بانديرا) فى الأرجواي . وعندئذٍ ينطلق أورتالورا ويعاني من العاصفة التى تجهد السفينة . وفى اليوم التالى يبدأ فى التجوال عبر شوارع منتفيديو يشمله حزن لا يثقر به بل لعله لا يحس له وقعاً أيضا ، لكنه لا يلتقي بأزيفيدو بانديرا .

وقرب منتصف الليل فى مغطس بجوار باسودل مولينو يشهد شجارا بين عدد من الرعاة وتومض سكينه فى الظلام .. ولا

يدري أورتالورا أي الجانبين على حق و إنما يجتذبه طعم الخطر المحض كما قد يشغف البعض بلعب الورق أو سماع الموسيقى ، وفى ربكته تلك يلتقط خنجراً رماه أحد العمال الإجراء نحو رجل يرتدي قبعة داكنة اللون وعباءة مفتوحة الرأس ، ويتضح أن هذا الرجل هو أزيفيدا بانديرا، وحالما يدري أورتالورا يمزق المظروف ويناوله له مؤثراً أن ينسب كل الفضل لنفسه، وعلى الرغم من الظلام المطبق والعتمة الشديدة إلا أن بانديرا كان يثير فى الناظر انطباعاً خاطئاً بأنه مشوه الوجه .. وعلى الدوام كان بالقرب منه يهودي وزنجي وهندي ، اجتمع فى محياه القرد والنمر وندبة عميقة تختط كامل وجهه وهي مع شاربه الأسود الكث أجمل ما فى وجهه .

وينتهي الشجار الذي دفعهم إليه الكحول بنفس السرعة التى بدأ بها ، ويعود أورتالورا فيتبادل الأنخاب مع الرعاة ويصحبهم بعدها إلى حفلة فى منزل كبير فى المدينة القديمة ، كانت الشمس عندئذ تعانق أواسط السماء . وفى الجزء الترابى فى أقصى الفناء نشر الرجال عدتهم وناموا عليها وأخذ أورتالورا يقارن الليلة بسابقتها بشكل غامض ، ووجد أنه يطأ الأرض بأقدام ثابتة ، بين زمرة من الأصدقاء ، صحيح أنه ممتعض بعض الشيء لأنه لا يحس حنينا إلى بيونس آيرس ..

ويخلد بعدها للنوم حتى تحين ساعة صلاة الفجر فيوقظه الرجل الريفي الذي هاجم بانديرا تحت وطأة السكر (ويتذكر أورتالورا أن هذا الرجل شارك الآخرين فى التمتع بالسهرة الصاخبة كما يتذكر أن بانديرا أدناه منه وأجلسه على يمينه وأمر

عليه أن يستمر فى الشراب) .

يخبره الرجل أن الرئيس بعث فى طلبه . وفى ما يشبه المكتب المفضي إلى طريق المدخل (لم يسبق لأورتالورا أن رأى باباً متعدد المخارج كهذا) .

كان أزيفيدو بانديرا بانتظاره ، وبصحبته امرأة فاتنة مقيتة حمراء الشعر ويطريه بانديرا ويضيفه بعلبة براندي ويكرر أن أورتالورا يبهره بجسارته ويقترح أن يصحبه إلى الشمال مع البقية ليجلبوا قطيعا آخرا . ويقبل أورتالورا بهذا العرض .. وقبيل الفجر ينطلقون إلى طريق تاكرويمبو .

يبدأ أورتالورا الآن حياة جديدة ، حياة الصباحات الرحبة الشاسعة ، حياة مليئة برائحة الجياد ، ورغم حداثة عهده بها وقسوتها المتناهية إلا أنها سرعان ما امتزجت بدمه . لأننا معشر الارجنتين (بما فيهم من ينسج لكم هذه الرموز) نتوق للسهول البكر الشاسعة التى تدور تحت أقدام الجياد كما قد يتعلق أناس (من أمم أخرى) بالبحر فيجلونه كل التجلة .

فى جزء قصى من المدينة يسكنه سائقو العربات والعربجية وأصحاب المركبا ت المتداعية ينشأ أورتالورا ، وقبل أن يتم عامه الأول يصبح من أبرع رعاة البقر الهند أوروبيين إذ تعلم كيف يثبت على ظهور الجياد ، وكيف يقتاد القطيع فى العزبة الشاسعة، ثم كيف يذبح على أرض المزرعة ، وكيف يغالب النوم ويجافي الوسن ، كيف يتحمل العواصف المزمجرة والصقيع القارس والشمس اللاهبة .. كيف يقود مؤن الحياة من الماشية بالصراخ والصفير .

طوال فترة التمرين هذه لم ير أزيفيدوا إلا مرة واحدة ولكنه كان فى ذهنه دائماً ، يكفيه أنه من رجال بانديرا .. ذلك كفيل بأن يجعله ممن يخشون ويتقون من قبل رعاة الأبقار الهند أوروبيين الذين سيعلون شأنه كثيرا إذ ليس هناك مضمار رجولة ولا موقف شجاعة إلا ويقال أن بانديرا يفعله بشكل أفضل وبكفاءة أكثر .

ويخمن أحدهم أن بانديرا ولد فى الجانب الآخر من كوريام (فى ريو جراند رسل) وهي صفة كان من المفترض أنها ستنقص من قدره ولكنها أضافت إلى شخصيته بعداً آخر وربطته على نحو مبهم وخفي بالغابات الكثيفة التى تعج بالبق والزواحف ولا تكاد تحدها حدود . وسرعان ما يكتشف أن نشاطات بانديرا كثيرة ومتنوعة ، وأن التهريب هو أحد هذه النشاطات ، فغاظه أن ينتمي إلى سائقي القطعان لأن ذلك يعني أنه خادم ، ولذا صمم على أن يرتفع إلى مستوى المهربين . وفى إحدى الليالي كان على اثنين من رفاقه أن يعبرا الحدود ليجلبا البراندي المعلب، فيفتعل أورتالورا شجارا مع أحدهما ويجرحه ثم يحتل مكانه . دفعه إلى ذلك طموح متقد وإحساس مبهم بالولاء (لابد لهذا الرجل - يحدث بها نفسه - أن يعرف أنني خير من كل أتباعه الهند أوروبيين) . ويمر عام كامل قبل أن يعود أورتالورا إلى مونتفيديو ، تمضى مجموعتهم الصغيرة فى سيرها على ضفاف النهر حول المدينة التى تدهش أورتالورا بكبرها وضخامتها .. وعندما يصلون إلى بيت الرئيس يفترشون أغطيتهم فى أقصى الأفنية وتمر الأيام تلو الأيام دون أن يرى أورتالورا ، يقولون - فى رعب وفزع - أنه مريض ويتولى أحد الهجناء خدمته فيحمل

للسيد قدر الحساء والشاي إلى مكانه المخصوص .

وذات مساء يعهد إلى أورتالورا بالقيام بهذه المهمة ويستأمن على أدائها ، فينتابه إحساس غامض بذل لا يخلو من رضا واقتناع . ويزدلف إلى غرفة النوم فيجدها مظلمة متداعية بها شرفة تطل على الغرب وبداخلها منضدة طويلة تغطيها الأسواط التى يقتادون بها الخيل كما يلحظ بندقية وأحزم رصاص وبضعة أسلحة وسكاكين متناثرة ، وفى الركن القصي من الغرفة مرآة مظلمة الجناح . كان بانديرا مستلقياً على ظهره يحلم ويتأوه وقد شملته دماء من أشعة الشمس وكأنما كان السرير الواسع الأبيض ينقص من حجمه ويضفي عليه مسحة من الغموض ، ويلاحظ أورتالورا شعرات رمادية كما يلحظ الإجهاد ومكابدة السنين مرتسمة على وجهه فيحس فى دخيلته امتعاضاً ، إذ كيف يلقون بقيادتهم إلى رجل أشيب كهذا ، ويخطر له أن ضربة واحدة منه كفيلة بتولى أمره ، وما تكاد الفكرة تصل إلى هذا الحد حتى يتحقق من خلال المرآة من وجود شخص آخر فى الغرفة ، ويكتشف أنها المرأة الحمراء الشعر فى لبسة المتفضل ، حافية القدمين ، فتنظر إليه في فضول بارد . وينهض بانديرا فيداعب ضفائر المرأة ويتخللها بأصابعه ردحاً من الزمن ، وأخيراً يومىء لأورتالورا بالانصراف .

بعد بضعة أيام يصدر الأمر بالتوجه إلى الشمال فينطلقون إلى منزل ضائع ناء فى قلب الريف لا يتميز بأية خاصية من خواص المكان .. إذ كان من الممكن أن يقوم فى أى جزء من ذلك السهل الشاسع الفسيح

سهل لا تظلله الأشجار ولا تتخلله الغدران، يستضيء بالشمس من مشرقها إلى مغربها وقد تفاخر العزبة ببعض الحظائر الحجرية إلا أن المكان بأسره متقوض ، هذا المكان البائس يسمى (الآلهة) . ويتناهى إلى علم أورتالورا من مناقشة دارت بين عمال المزرعة ومستخدميها أن بانديرا سيعود قريباً جداً من مونتفيديو ، وحين يسأل عن السبب يخبرونه أن ثمة راعياً أجنبياً اتخذ مؤخراً سمة سلالة الهند أوروبية يحاول الاستيلاء على سلطانه ، ويدرك أورتالورا أنهم سيسخرون ولكن يستشعر كثيرا من الزهو والخيلاء . فقد صار من الممكن الآن التفكه بنكتة خطيرة كهذه .

وحين يعلم بأن بانديرا قد تورط فى حلف مع أحد الزعماء السياسيين وأنه قد تخلى عنه الآن يسعد لهذا الخبر ويبتهج به . تبدأ صناديق الأسلحة بالوصول .. ثم تصل جرة فضية ومشرب للمرأة مع ستائر مخملية براقة . وفى ذات صباح ينبعث من بطون الجبال فارس كث اللحية يرتدي قبعة كبيرة موصولة بالعباءة التى يتلفع بها ، واسمه البابنو سواريز ، وهو المسئول عن حراسة أزيفيدو بانديرا (الكبنجا) . وهو رجل نادر الكلام فإن تحدث ارتضخ لكنة برازيلية ولم يدر أورتالورا كيف يعلل تحفظه ، أينسبه إلى عداوة أم إلى احتقار أم إلى بربرية مجردة ، بيد أنه كان يعلم أنه محتاج إلى كسب وده إن أراد إنجاح الخطة التى اختمرت في ذهنه ، وبعدها يتدخل فرس أحمر ذو بقع سوداء أحضره أزيفيدو معه من الجنوب فى قدر بنجامين أورتالورا ، إذ يعجب للفرس وركابه وسرجه بالموشي بجلد النمر .. هذا الجواد

الأشم الحر رمز لسلطان الرئيس وسطوته ولذا تاقت نفسه للاستيلاء عليه كما اضطرمت فيأعماقه رغبة في الاستحواذ على المرأة الوضاءة الشعر .. أصبحت المرأة والعتاد والفرس الأحمر جميعا لوازم ونعوتا للرجل الذي يسعى لتدميره . وهنا تتعقد القصة وتأخذ أبعاداً أعمق ، فقد كان أزيفيدو بانديرا خبيراً في فن الإرعاب والتخويف التدريجي ، بارعا في المناورات الشيطانية التي تكفل له اذلال محدثه حين يمزج الحقائق الصراح بالسخرية ، ويقرر أورتالورا أن يتبع هذه الطريقة الغامضة في العمل الصعب الذي يعد نفسه للقيام به ويقرر كذلك أن يتخلص من أزيفيدو بتؤدة وتأن . وخلال أيام الخطر المشترك يكسب صداقة سوزايرز ويسر له خطته فيعده سواريز بالمساعدة وتتوالى أحداث لا أعرف منها إلا القليل القليل حتى يجيء وقت يمتنع فيه أورتالورا عن تنفيذ أوامر بانديرا ويتجاوزها ويعدل فيها أو يختلقها وبدا له أن الكونت بأسره يقف في صفه لينسج معه خيواط المؤامرة ويعجل بوقوع الأحداث .

وفي ظهيرة يوم قائظ يحدث تراشق بالنار في أحد الحقول (تكاور ينمبو) مع عصابة من مقاطعة الريجرلاند .. وعندها يغتصب أورتالورا مكان بانديرا ويقود الأرجوائيين . وتخترق كتفه رصاصة لكنه يعود في المساء إلى (الآلهة) ممتطياً صهوة جواد الرئيس الأحمر والذي يتلطخ ببقع من الدم الذي نزفه على جلد النمر .. وفي تلك الليلة ينام مع ناعمة الشعر . وفي روايات أخرى يختلف ترتيب الأحداث وبعضها ينكر أن تكون مجمل الأحداث قد جرت في يوم واحد ، لكن بانديرا يبقى رئيساً اسمياً

فيصدر الأوامر لا تنفذ وإن ارتدع أورتالورا عن مسه بسبب هو مزيج من التعود والشفقة .

ويماثل تصعيد الليلة الأخيرة وتأزمها آخر المشاهد الدرامية . ففي تلك الليلة ، يأكل الرجال لحماً طازجاً فى (الآلهة) ويحتسون عزائم القتال ثم يعزف أحدهم نغمات (ميلومجا) طويلة على القيثار وفى صدر المائدة كان أورتالورا المخمور بتعاظم ويتعاظم ويزيد عجباً بنفسه وتيها بمكانته ويصبح هذا البرج المدوخ رمزاً لقدره الذى .. أما بانديرا – الصامت بين الصائحين – فيدع الليلة تنساب بصخبها حتى يدق الجرس اثنتي عشرة دقة فينهض عندئذ كمن تذكر ويذهب فيقرع باب المرأة .. وتفتح له الباب بسرعة كأنما كانت تنتظر مقدمه تأتيه وقد نضدت نصف ردائها حافية لا تنتعل حذاء .. وفى صوت سريع متلهوج يصدر الرئيس أوامره (ما دمت على علاقة حب بهذا الرجل القادم من بيونس آيرس فبوسعك أن تذهبي إليه الآن وتقلبيه على مرأى من الجميع) ثم يضيف تفاصيل أخرى في غاية الوحشية والقسوة .. وتحاول المرأة أن تعارض وتقاوم ولكن الرجلين يسحبانها من ذراعها ثم يلقيان بها على صدر أورتالورا .. فتقبله والدمع ينحدر من عينيها غزيرا .. وعندئذ يتناول سوايرز مسدسه فى يده . ويدرك أورتالورا قبل أن يموت أنهم وشوا به من البداية وأنه قد حكم عليه بالموت سلفا ولم يسمحوا له بممارسة الحب والانتشاء بالسلطة والزهو بالنصر مادام باندير ا يراه ميتا

وفى احتقار وازدراء يضغط سواريز على الزناد .

أمازنــز

فى طريق عودتها من مصنع الطرابيش والأقمشة إلى المنزل فى مساء الرابع عشر من يناير سنة 1922 اكتشفت "ايما زنز" رسالة فى الجزء الخلفي من الصالة وكانت رسالة تحمل طابعا برازيليا جاء فيها أن أباها مات .. فى البداية خدعها المظروف والطابع البريدي ثم أقلقها الخط الغريب إذ حاولت الرسالة فى حيز تسعة أو عشرة أسطر – أن تخبرها بأن السيد " مائير " قد تناول – بطريق الخطأ – جرعة كبيرة من المنوم ومات فى اليوم الثالث من الشهر الجاري فى مستشفى " باجيه " .. وفى آخر الرسالة توقيع باسم " فين أو فاين " أحد السكان المزاملين لأبيها والذي ما كان ليعلم بأى وسيلة يخاطب ابنة الفقيد .

أوقعت أيما الورقة واعتراها فى البدء ضعف فى المعدة وخور فى الركبتين ، ثم ساورها إحساس بالذنب الأعمى باللاحقيقة وتوالت بعدها إحساسات البرد والخوف .

وتبينت عندئذ أن تكون فى اليوم التالي . ولكن سرعان ما تنبهت إلى لا جدوى أمنيتها فقد كان موت والدها هو الشيء الوحيد الذى حدث فى العالم .. وسيستمر فى التكرار إلى ما لا نهاية .. التقطت قطعة الورق ومضت إلى غرفتها وبغضب خبأتها فى أحد الأدراج ، كأنها عرفت على نحو مبهم كل الحقائق الخافية .. فبدأت تشك فيها .

من يدري قد تكون استحالت الشخص الذي تود أن تكونه ؟

وفى الظلام المتنامى أخذت ايما تنتحب لانتحار " مانويل

مائير " حتى آخر اليوم . مائير الذي كان اسمه فى الأيام السعيدة الخوالي " ايما نويل زنز "

تذكرت إجازات صيفية أمضوها فى مزرعة صغيرة قرب جوايلجواى، تذكرت أو حاولت أن تتذكر أمها ، وتذكرت المنزل الصغير فى " لانوس " والذى بيع فى المزاد .

تذكرت ضلفا صفراء فى إحدى النوافذ ، استرجعت أمر إلقاء القبض .. الفضيحة .. المقالات المسمومة التى عالجت بها اللص فى قضية اختلاس المحاسب .. تذكرت " وإن كان هذا ما لم تنسه أبدا " أن أباها أقسم لها أن السارق هو " لوونثال " الذى كان فى السابق مديرا للمصنع وأصبح الآن أحد مالكيه .

أخفت ايما هذا السر منذ سنة 1916 لم تخبر به أحدا ولا حتى صديقتها اليسا ارستين فضلى صديقاتها .. ربما كانت تؤثر الابتعاد عن التكذيب الشنيع .. وربما ظنت السر صلة تربطها بالوالد الغائب .. لم يكن " لوونثال " يدري انها تعلم فاستمدت من هذه الحقيقة الطفيفة إحساسا بالقوة، لم تنم تلك الليلة وعندما حدد أول أشعة الفجر إطار النافذة المربع كانت خطتها قد نضجت تماما. حاولت أن تجعل اليوم – الذى بدا لها أزليا لا نهاية له – يوما عاديا فى المصنع سرت إشاعات عن اضراب – وأعلنت ايما أنها كالعادة ضد كل اعمال العنف .

وفى السادسة بعد انتهاء العمل ذهبت ايما مع صديقتها اليسا إلى ناد للنساء فيه صالة ألعاب رياضية ومسبح .. وقعتا اسميهما وتحتم عليها أن تكرر نطق وتهجئة اسميها : الأول والأخير .. كما تحتم عليها أيضا أن تجيب على النكات الفظة التى تصاحب

الكشف الطبي الروتيني .

ومع اليسا وأختها الصغرى : أخذت ايما تناقش الفيلم الذي سيذهبون لمشاهدته مساء الأحد ثم تحدثوا عن أصد قائهم الفتيان، ولم يتوقع أحد أن تتكلم ايما التي ستبلغ التاسعة عشرة فى ابريل ورغم ذلك فلازال الرجال يثيرون فيها هلعا مرضيا .

ولدى عودتها إلى المنزل اعدت حساء التابيوكا وبضع خضروات .. أكلت مبكرة وذهبت إلى سريرها وقهرت نفسها على النوم .. وعلى هذا النحو من الحيوية والتفاهة مر يوم الجمعة الخامس عشر وهو اليوم السابق لليوم الموعود .. أخيرا ! فلن يتعين عليها بعد الآن أن تخطط أو تتخيل .. وخلال ساعات قلائل ستكون بساطة الحقائق كافية .. وفي صحيفة " لابرينزا " قرأت أن السفينة " نورد ستجارنان " القادمة من مالمو ستبحر فى المساء من الرصيف رقم ثلاثة .

اتصلت بلوونثال هاتفيا وأخبرته برغبتها فى أن تسر إليه بأمر دون علم الفتيات الأخريات وهو أمر يخص الاضراب وأخبرته أنها ستزوره عند هجمة الليل .. ارتعش صوتها ارتعاشه تليق بواش ، ولم يحدث شيء آخر ذو بال فى الصباح ، وعملت حتى الثانية عشر ثم جلست مع الاختين الاس وبيرلا كرونفس ، وتناقشن فى تفاصيل نزهة الاحد .. استلقت بعد الغداء وراحت تراجع - وعيناها مقفلتان - الخطة التى رسمتها . وفكرت أن الخطوة الأخيرة ستكون أقل رعبا وفظاظة من الأولى وأنها ستمنحها - دون شك طعم النصر والعدالة . فجأة نهضت قلقلة وجرت إلى درج الملابس ، فتحته ووجدت خطاب فين تحت

الصورة ميلتون سيلز حيث تركت ليلة البارحة .. لا يمكن أن يكون أحد قد رآه .. بد أت تقرأه ثم مزقته .

ومن الصعب أن نورد بشكل واقعي وقائع ذلك المساء بل ربما كان أمرا خاطئا أيضا .. ومن أجمل ميزات التجارب الجهنمية لا واقعيتها التى تتحالف مع رعبها وقد تزيد فى حدتها ، إذ كيف للمرء أن يصدق حدثا لم يصدقه الشخص الذى اقترفه ؟ وكيف لنا أن نستعيد المعاناة القصيرة التى تثيرها اليوم ذكرى " ايمازنز " وتربك الناس وتجعلهم فى حيرة من أمرهم ؟.

كانت آخر الأضواء المعتمة تذبل فتزداد حلكة الظلام وتتمكن ايما من المغادرة دون أن يلحظها أحد . وفى الزاوية استقلت عربة تتجه غربا، اختارت وفقا لخطتها ابعد المقاعد واقربها من المقدمة لئلا يراها أحد ولربما كانت تحس بالارتياح فى الحركة الخفيفة الباهتة التى اصطبغ بها الشارع طوله .. ومضت بها العربة نحو الاحراش المربعة المتناقصة : تراها وتغفل عنها فى الوقت نفسه ..

حتى نزلت فى أحد الشوارع الجانبية فى " وارنز " وعلى نحو متناقض فى الظاهر أخذ التعب والاجهاد يتحولان إلى قوة أخفت عنها الخلفية والهدف .

كان أرون لوونثال شخصا جادا بنظر الجميع وبخيلا فى رأى أصدقائه الخلصاء – وكان يعيش وحيدا فوق المصنع . ولأن الموقع كان فى الضواحي الممحلة للمدينة فقد كان يخشى اللصوص ولذا فهنالك كلب فى ساحة المصنع ومسدس فى درج يعرف الجميع أمره .. فى السنة الماضية كان ينتحب نحيبا جذابا

ألما لوفاة زوجته غير المتوقعة فقد كانت زوجته قد جلبت معها مهرا جيدا ولذا فحسرته الحقيقية التى استثارت عواطفه وأهاجت دمعه كانت على المال .. كان يحس فى أعماقه ضيقا أليفا ، إذ كان يعلم أنه ابرع فى ادخار المال وحفظه لا فى كسبه . وكان شخصا مفرط التدين .

وقف إلى جوار النافذة بصلعته وبدانته مرتدياً ملابس الحداد ونظارات مظللة ولحيته الشقراء ، وقف ينتظر التقرير السري من العاملة زنز .. رآها تدفع البوابة الحديدية التى تركتها مفتوحة لها وتعبر الساحة الكئيبة . رآها تنحرف قليلا عندما نبحها الكلب المقيد ..

كانت شفتاها تتحركان بسرعة قصوى كمنِ يتلو دعاء بصوت خفيض تعب ، وكانت ايما عندئذ تكرر نفس الجمل التى سيسمعها السيد لوونثال قبل أن يموت ، لكن الأمور لم تمض على النحو التى قدرته هي . إذ ظلت تتخيل نفسها منذ الصباح الباكر وهي تستخدم المسدس لتجبر المخلوق البائس على الإقرار بذنب مشين وتعرض – فى غضُون ذلك العدل الالهي الذي ينتصر على عدالة الانسان .

وكانت تتمنى ألا تعاقب لا خشية أو ارتعادا ولكن لأنها كانت فقط أداة للعدالة ثم تختتم طلقة واحدة فى وسط الصدر لكن الأمور لم تجر على هذا النحو .

وفى حضور أرون لوونثال أحست أيما أكثر من ضرورة الانتقام لأبيها، إذ أحست بحاجتها هى لإيقاع القصاص به لما تسبب لها فيه من غضب فاجع عانت منه.. لم تعد قادرة على

الامتناع عن قتله بعد تلوث شرفها.. ولم يكن لديها وقت لمسرحة الأمور. بينما هى جالسة، مطرقة فى حياء ، اعتذرت إلى لوونثال استثارت فيه "كما يليق بمخبر" الشكر على ولائها. تفوهت ببعض الأسماء، ثم توقفت كأنما داهمها خوف وقهرها.. وتدبرت عذرا فأرسلت السيد لوونثال ليحضر لها كأس ماء.. وعندما عاد لوونثال.. من غرفة الطعام ولم يكن قد اقتنع بكل الضوضاء التى أحدثتها وإن انغمس فيها – كانت أيما قد أخذت المسدس الثقيل من الدرج.. ضغطت على الزناد مرتين.. تهاوى الجسر الهائل كأنما حطمه الدخان والتقارير.. تحطم كأس الماء وتطلع إليها الوجه بدهشة وغضب.. أما الفم فقد قذفها بشتائم بالأسبانية والأيدية..

لم تنقص الكلمات الشريرة.. وكان على أيما أن تعاود إطلاق النار .. فى الفناء تصاعد نباح الكلب المقيد وانثال دم أحمر متدفق من الشفتين الشريرتين فروى اللحية والملابس.

بدأت أيما تتلو التهم التى أعدتها.. لكنها لم تتم كلامها إذ أن السيد لوونثال كان قد مات عندئذ .. ولم تعلم إن كان قد فهم أم لا.. وأنبأها النباح المكظوم أنها – رغم كل هذا لا تستطيع أن تستريح.. عاشت فى الغرفة.. بعثرت الكراسى المعدة للجلوس والنوم.. وفكت أزرار قميص الرجل.. لملمت شظايا الكأس المكسور ووضعتها فى كابينة الملفات.. ثم التقطت سماعة التليفون وكررت – ما ستكرره طويلا – سواء بهذه الكلمات أو بسواها:

– لقد حدث ما لا يصدق.. جاء السيد لوونثال بحجة المظاهرة .. أساء إلى وشتمنى.. فقتلته وفى الحقيقة فإن القصة بدت صعبة التصديق وإن كانت قد أسرت الجميع لأنها أساسا

صحيحة .

كانت نغمة صوت أيما مخلصة صادقة.

كان خجلها حقيقياً

كان كرهها حقيقيا أيضا..

كما كان الغضب الذى احتملته حقيقة مماثلة، فقط الظروف والملابسات كانت زيفا واسما واحدا واثنين.

الفهرس

خورخى لويس
بورخيس

التاريخ الكونى للخزى

وقصص أخرى



ميريت للنشر والمعلومات